

11 : 11

ثورة روح

تأليف / ندى الديب

الأهداء

إليك ..

أحبك لأنك فى الكتابة مُلهمى ، وفى الجنون مُعلمى ، وفى الصلاة إمامى ، وفى الحب سيد قلبى ،
أحبك لأنك أجمل الأشياء ، بل كل الأشياء وكل البشر .

"نبال قندس"

مدخل

أصبحت من ضمن عاداتى أن اتجول فى معرض للرسم .. لا اشترى اللوحات ، ولكنى إعتدت على التحديق فى الألوان .. كيف يستطيع الرسام أن يمزج الألوان بتلك الطريقة لتتشكل لوحة تعبر عن أفكاره ! .. أحقق فى اللوحات وتفاصيلها بدقة شديدة حتى أفهم ما يقصده الفنان بتلك الرسمة .. ولكنى فى النهاية انتقل من لوحة الى أخرى ولا أفهم من تداخل الألوان اى شئ .. أنظر نحو اللوحات محدقة بكامل تركيزى .. لا تغرينى أحداهن ، ولكنى وجدت روحى تقودنى نحو لوحة ، شعرت بأنها تلمع كنجمة وسط سماء صافية تماماً .. إنها غامضة .. وينتابنى الفضول لمعرفة من رسمها ! .. فتفاصيلها تشبهنى كثيراً ، وكأن من رسمها يعرفنى جيداً .. فتفاصيلها واضحة جداً بالنسبة لى .. إنها مختلفة ، فقد رسمها الفنان بالأبيض والأسود فقط .. تبدو تفاصيلها حزينة وقاتمة .. فقد رسم فيها الفنان فتاة ثلاثينية ، تحتضن نفسها .. يعلو وجهها الحزن ولكنها تقف صامدة فى منتصف طريق على جانبيه صحراء .. ويقف حولها من إتجاهات متفرقة أشخاص وجوههم عابسة ، يمدون أيديهم نحوها وهم يرمقونها بنظرة غاضبة .. وكأن كلاً منهم يحاول ان يجذب الفتاة نحوه بقسوة .. أشعر وكأن تلك الفتاة ثائرة على هؤلاء الأشخاص .. ولكنها لا تستطيع البوح بذلك .. فحين يتألم الإنسان يصبح عدائياً او إنطوائياً ولكنه فى تلك الحالة تصبح روحه ثائرة .. تحاول الخلاص من جسد لا يستطيع التعبير عن ألمه سوى بالصمت ..

فحين تثور الروح ، لا تهدأ حتى تتحرر من قيودها .. تتحرر من قوانين الحياة الفانية .. تخرج من شرنقتها كفراشة تحاول التحرر من قيودها لتبحث عن النور .. عن السلام .. حتى تهدأ .. ثم تتفنن في خلق قانوناً خاص بها ، قانوناً لا يعرف المستحيل .. لا يخاف من المستقبل ، ولا يسعى للثأر من ماضيه .. روحاً تسعى للبحث عن نصفها الآخر ، روحاً أخرى تشبهها .. ثائرة مثلها .. تسعى تلك الأرواح لتكتمل .. لتتير العالم بضوء التسامح .. لتغير مفهوم العشق ، لتبدل عشق الجسد بعشق الروح .. تصنع لغة أخرى للسلام .. فأنا حياتي مضت تفاصيلها كتلك اللوحة تماماً .. ربما يوماً ما سأطلب من ذلك الرسام أن يرسمها لي .. ولكني أخشى أن أرى تلك اللوحة .. وكأنني أخاف أن أرى شريط حياتي يمر أمام عيني مرة أخرى .. أتمنى أن تهدأ روحي وأنعم بالسلام ..

" تظل الروح ثائرة حتى تجد ملاذاً آمناً لتهدأ ، فملاذها الوحيد هو نصف روحها الآخر الذي تكتمل به ، فهنيئاً لمن كانت أقداره مضيئة له ، وإكتملت روحه وهدأت ثورته "

اللوحة الأولى

لقد ربط بينى وبين ذلك الرجل رابط غريب .. يشعرنى وكأننى خلقت من روحه .. فبرغم محاولاتى القوية أن أبتعد عن كل من يحاول من الرجال إقتحام عالمى الخاص ، الا أنه رجل مختلف .. رجلاً يعرف مفاتيح قلوب كل النساء .. بل أصعبهن لن تكون صعبة المنال عليه ، برغم جموده وقسوة مشاعره ، الا انه يعلم عن عالم النساء ما لم يعرفونه هن عن أنفسهن .. تعشقه النساء ولكل منهن سبباً لعشقه ، فرجلاً ثلاثينياً وسيماً مثله لم ترفضه أجملهن يوماً ، ولم تستحيل عليه أجسادهن .. رجلاً لم يعرف لليأس طريق .. لا أعلم ما يميزه .. ولكن ربما تغيرهن وسامته ، أو تغيرهن كلماته حين يغازلهن ، أو ربما استحوذته على أجسادهن بإغراءاته الخاصة .. رجلاً لن يقبل بالرفض ولا الهزيمة أمام امرأة .. فهو قادر على ان يفعل المستحيل للإستحواذ على من يرغب فى امتلاك جسدها .. فقد إعتاد على القبول ، ولم يستقز رجولته الرفض يوماً .. ربما كان سحره يكمن فى إنفراده بالثقة فى وسامته .. أو لإنه استثنائى بشخصيته وذكائه وقوة كلماته التى إعتاد أن يُلقيها على مسامع الجميع .. يبدو للوهلة الأولى شخصاً بسيطاً ، عادياً .. لكنه أعمق مما كنت أظن ، فهو يمتلك من القوة الظاهرية ما يفرض به رغباته وقراراته على الجميع .. يشعر بلذة فى التملك وتسلط الرأى لا يستطيع أحداً ان يهزمها .. يحاول أن يترك أثراً بغموضه فى نفوس الآخرين ولكنه يحاول به إخفاء حقيقته .. فبداخلة طفلاً صغيراً يرغب بأن

يفهمه أحد .. لم يسمح يوماً أن يدخل عالمه الخاص سوى شخصاً واحد .. لن يتسلل الى عالمه بل سيسمح له هو بمحاولة فك شفرة عقله وقلبه الغامضان ..

لم يتوقع هذا الرجل بأن قدره سيكون مختلفاً تلك المرة .. ولن يكون الوصول سهلاً لإمرأة مثلى لا يعرف كيف كانت معاناتها فى الحياة .. وإنها ستكون أصعب خططه ، وأقصى أمنياته .. سأكون المستحيل الذى لم يتذوقه يوماً .. سيكون عشقه لى هو القرار المؤلم الذى اتخذه بحياته .. كلاً منا يحمل شخصية مختلفة عن الآخر ظاهرياً ، بينما بداخلنا متشابهين ، نحمل من الألم ما يفوق إستيعاب الآخرين من حولنا .. وهذا ما جمع بيننا دون إرادة منا .. سحرنى هو بعمق كلماته وثقافته وذكائه .. بينما انا كعادتى كنت احاول الهروب .. الهروب من أقدارى .. من ألمى .. حاولت مراراً ان أبتعد عنه .. ولكنه أخذنى إلى أعماقه .. وكأنه يرغب بإرادته ان أحتل قلبه وعقله دون خوف من المجهول .. فقد خُلق من قوة وشجاعة يحاول بها إمتلاك ما يريد ، فهو قادر على ان يتناسى المكان والزمان والظروف التى تقف امامه ، معتقداً انه إذا اراد إمتلاك شيئاً ، فسيأخذه مهما كلفه الأمر .. بينما انا ؟ .. فكنت اضعف من أن أتناسى ما مررت به .. سنوات من الألم ، القسوة ، والعنف .. كانت تلك الأيام قادرة على كسرما بداخلى من قوة .. قتل طفولتى .. إحتراق أنوثتى .. تحطيم عقلى ، ودفن قلبى تحت أنقاضها .. تليها سنوات من النسيان .. نسيان من أكون ، وأين ستؤول بى الظروف .. فخطواتى لم تكن معروفة .. وباب قلبى قد أغلقته على ذكريات لم أستطيع إقتلاعها من داخلى حتى أستطيع أن أعيش فى سلام .. فإمرأة مثلى لن يكون هو أكبر أمنياتها .. ولن أكون له العذراء التى حلم بأن يمتلكها .. فهو كان مبدعاً فى إختيار عشيقته .. صياداً تغريه الفريسة الصعبة المنال .. لكنه لم يدرك أن جاذبيته لن تستطيع إختراق قلباً أرهقه الألم مثل قلبى .. لن تغرينى كلماته .. ولن يستطيع إختراق حدود

من الأشواك التى صنعتها الذكريات بداخلى .. لن يستطيع بكل ما أوتي من قوة أن يمتلك قلبى
الذى أصبح مسجوناً بداخل صندوق أسود .. لا أجرؤ انا حتى على الإقتراب منه ..
لطالما إعتقدت أن القدر له كلمته الأخيرة فى تسيير بعض جوانب حياتنا .. بل فى كل حياتنا ..
يتحكم بها كيفما شاء .. ولكنه لم يكن عادلاً معى .. لم يستطيع إنهاء الأم تسكن بداخلى .. لم
يستطيع أن يُخرج من داخلى الصندوق الأسود الذى أخفى بداخله كل ذكرياتى المؤلمة ..
ربما ظننته قادراً على إقتلاع تلك الذكريات من داخلى .. قادراً أن يحطم كل القيود التى بناها كل
من عبّر خلالى من الأشخاص .. أو أن يُنهي معاناة إستمرت لسنوات بحياتى .. أو أن يقتلع
من أعماقى الشجن الذى تخفيه إبتسامتى ..

إنه يوماً بارداً وممطراً كباقي ايام الشتاء .. لا جديد .. أقف فى شرفة غرفتى الصغيرة ، أتأمل
غيوم السماء ، انها تبدو مخيفة ولكنها تحمل بداخلها أمنياتى التى أبعثها من خلالها .. إنها
متغيرة تمضى وتعود كأفكارنا وأقدارنا .. وبرغم أضوائها الحزينة إلا إن لها بريق خاص بها ..
فليالى الشتاء القاتمة نرتدى لها أرقى ثيابنا .. ونكتب فيها أجمل ما كتب فى الروايات .. فالأدباء
حين يشرعون فى كتابة رواياتهم يختارون الأجواء الهادئة كليالى الشتاء حتى ينتجون فيها أفضل
كتاباتهم .. لكن الغيوم بالنسبة لى هى رسول حزين يحمل معه أمنياتى ..

أبتسم لها وأسألها .. هل ستتحقق امنياتى ذات يوم ؟ .. لم تجيبنى يوماً ولكنها تمضى بتلك
الأمنيات لعلها تستجاب ..

أفسح المجال لحبات المطر لتتغلغل بداخلى .. وتتقى روحى من الألم وأنا أضحك كطفل صغير
لا يبالي ببرودة الطقس ، ويحمل تلك الحبات بيده ويلقيها على وجهه بسعادة .. ولكن فجأة
يصفعنى الهواء البارد فيصعب تحمله لوقت طويل ..

اغلقت الشرفة وركضت للفراش احاول ان اساعد اطرافى المتجمدة على التدفأة .. تركض حولى
"كيتى" تلك القطة المشاكسة ، تحاول ان تختبأ بعيداً عنى وتجلس تحت سريرى ، انها تعلم بأننى
لا أهتم بها ، ولن احاول لمسها فأنا اخاف ان اقترب من هذه الكائنات الضعيفة .. لا اعلم لماذا
؟ .. ربما لأننى اشعر أحياناً بأن مشاعرى متجمدة مثل اطرافى تماماً .. او ربما لأنهم يشبهون
شيئاً بداخلى أكره ان أفكر فيه .. ربما رؤية خوفها او ضعفها يؤلمنى .. لكن تلك المرة اجبرتنى
نظرتها الضعيفة لى بأن أحملها برفق .. كانت نظراتها ممتلئة بالعتاب وكأنها تطلب منى ان لا
أتركها .. حاولت ان اقتلع الخوف من داخلى وأحملها بين يدى خوفاً عليها .. كانت ترتجف بشدة
، لا اعلم اذا كانت ترتجف من خوفها منى أم من شعورها بالبرودة ..

تلك هى المرة الأولى التى المسها فيها .. وضعتها بجوارى على السرير وهى تنظر نحوى بغرابة
، وكأنها تتسائل : لماذا أشفقت عليها تلك الليلة على غير عادتى معها .. ابتسمت لها لأطمئننها
:

- لا تخافى يا صغيرتى فأنا سوف أكون لكِ الحماية من كل شئ يؤلمك .. أعدك اننا سندعم
بعضنا دائماً .

يبدو انها اطمأنت لى .. جلست بجوارى وكأنها تشاركنى دفا الفراش ، وانا ايضاً شعرت بالدفأ بجوارها .. تلك الليلة الباردة فاضت فيها أفكارى .. تتصارع تلك الأفكار بداخل رأسى ويبدو أنها ترغب أن تسكن الأوراق .. لا بأس .. سيهدأ عقلى بعد أن أسكب كل تلك الأفكار على الورق ..

التقطت دفترى الصغير الذى اضعه بجوارى دائماً لأكتب فيه أفكارى العابرة .. حاولت مراراً ان أفنع نفسى بأن البرودة التى اشعر بها هى برودة الشتاء وليست برودة مشاعرى .. فكرت طويلاً من أين ابدأ كتابة ! .. هل من بداية الرواية أم نهايتها ؟ .. ربما الاثنان متشابهان لدى ، فجميع الروايات بدايتها مزيج من الخوف واللذة .. ونهايتها مزيج من الخوف والالم .. لكن اليوم أريد ان اكتب عن شيئاً مختلفاً .. عن الأقدار .. يا لها من كلمة عميقة .. الأقدار أحياناً تشبه الغيوم التى كانت تملأ السماء بالخارج ، لا نعرف ما اذا كانت ستختفى فجأة ام ستمطر علينا سيلاً من المياه يُغرق كل شئ .. لا أعلم .. ولكن ما أعرفه بأن كل ما هو هادئ فى هذا الكون الكبير لا يحب الغيوم ..

كالورود لا تتفتح فى وجود الغيوم .. بل تشعر بإنكسار وذبول وتتغير ألوانها .. إذا سأكتب عن الأقدار .. او ربما أكتب عن العشق .. لكن كيف سأكتب عنه وأنا لم أذوق طعمه ولم أختار طريقى يوماً ؟ .. بل تحكم قدرى بطريقى !..

فأنا لم أمتلك يوماً رفاهية أخذ قراراتى ولا تحقيق رغباتى ، بل كان القدر يتحكم بى دائماً .. حتى فى مشاعرى لم يمنحنى القدر قلباً صالحاً للعشق .. ولم أومن يوماً بالحب ولا سحره ، ولكنى أومن بالقدر .. ولأن خطواتى فى الحياة قدرية ، أصبحت أنا أيضاً شخصاً قدرياً يؤمن كثيراً بأن

للقدر سحراً يستطيع إخراجنا من طريق الى طريق آخر لم نكن نتوقعه .. لذلك دائماً يتحكم القدر فى ابطال رواياتى .. لا أعلم لماذا لم اتحكم انا بها ! .. ولكن القدر يفرض نفسه بها دوماً .. وكأنه يسكن بداخلى ويُملئ على ما يجب ان اقوم به فقط .

ماذا سأكتب فى بداية روايتى ؟ .. هل أصف بطلاً روايتى بأنها حزينة دائماً ؟ .. أم أتحدث عن حبيبها الذى إعتنقها كعبادة خاصة .. أم أكتب روايتى الخاصة .. لا أعلم من أين أبدأ .. فأنا مازلت أعيش بداخل صراعاً شديداً القسوة والمتعة معاً .. بل والغرابة أيضاً ..

ولم يمنحنى القدر فرصة لإختيار طريقى .. أو يمنحنى إبتسامة صادقة من القلب .. او عشقاً يُحىى بداخلى وروداً قد ذبلت من المعاناة والألام .. لم يساعدى على تحقيق حلمى كان يراودنى طوال حياتى .. او أن يُعيد لى طفولتى التى لم أشعر بها سوى من رؤية العاب الأطفال من بعيد .. او ضحكاتهم التى كانت تسعدنى بقدر ما كانت تخترق قلبى وتُخرج منه حزناً دفيناً .. لقد منحنى القدر مزيداً من الألم ، ومزيداً من اليأس .. فأنا لم أضل طريقى يوماً ، بل إبتعد عنى الطريق بقوة القدر .. ولم أستطيع فعل شئ سوى الإستسلام له .. وظننت أن الألم بات عادياً بداخلى وتعودت عليه .. لكنه لم يكن عادياً تلك المرة .. فأنا تركت عالم العشق مُرغمة ، وأغلقت أبواب قلبى .. حتى منحني القدر ألماً جديداً لم أتحملة بداخلى .. فالألم الجديد من نوع خاص .. إنه ألم العشق .. ألماً يحرق بداخلى كل عنادى وقوتى .. إخترق قلبى وأراد أن يتوغل الى أعماقى محدثاً ضجيجاً لا أقوى على تحمله .. هو إحصاراً جعلنى أتناسى كل ما ممرت به من ذكريات مؤلمة .. ولكنه برغم قوته الا انه لم يستطيع أن يجذبني إليه .. فالخوف من المجهول كان أقوى من إستسلامى له ، حتى وإن كان هو سر سعادتى ..

حاولت الهروب من هذا الرجل العنيد مراراً .. لكنه يقاسمنى روحى .. يشاركنى أفكارى .. وكأننى

خُلقت منه ، من جسده ، وروحه .. أصابنى عشقه كلعنة لا أستطيع الفرار منها ..

اتذكر يوماً كنا نتحدث عن اليوم الذى عرفته فيه ، وسألنى هو نفس السؤال عن القدر الذى

جمعنا .. هل هناك شيئاً مشتركاً بيننا أراد القدر أن نعرفه ؟

لم نجد إجابة .. وربما لم نكن نريد معرفة الإجابة ، فما كنا نشعر به كان كافياً حينها ..

لم أخطئ أنا لذلك العشق ، ولم يبحث هو عنه .. ولكن قدراً قوياً أراد ان يجمعنا سوياً .. قدراً

أراد أن يعيد بداخلى كل ما مضى من ذكريات .. أراد أن يُحيى بداخلى الطفلة التى قُتلت بداخلها

الطفولة .. أن يُحيى أنوثتى التى وأدّها العابرون ..

فى أحد فصول الصيف الماضيين ، طلبت منى صديقتى وفاء ان أرافقها مع اصدقاءها فى رحلة

لبضعة ايام ..

"وفاء" هى الصديقة التى منحنى قدرى صداقتها بلا مجهود .. نختلف عن بعض كلياتاً فأنا تعودت

على العزلة والصمت الدائم ولا ابوح بأسرارى سوى لنفسى وأحياناً لا ابوح بها خوفاً من تجدد الألم

بداخلى ، بينما هى فتمتلاً بالحيوية دائماً .. اشعر احياناً بأنى إبنتها المدللة ، او كقطعة زجاج

تخاف عليها من الإنكسار او ان تتألم لأى سبب .. أعتقد بأننى محظوظة بها كصديقتى حتى فى أوقات جنانها ومزاجها المتغير ، لكننى أحبها كثيراً .. لم تكن علاقتى بأصدقائها قوية فقد تعرفت عليهم عن طريق وفاء ، ولكن كانت تربط بينها وبينهم علاقة صداقة قوية .. حاولت وفاء إقناعى بالخروج من عزلتى وأخذ إستراحة قصيرة للسفر معهم لبضعة أيام .. لم تروق لى الفكرة كثيراً كشخصية إنطوائية تعودت على العيش بداخل قوقعة خاصة بها.. ولكنى قررت خوض التجربة من أجل وفاء التى رفضت السفر لعدم رغبتى بمرافقتها ..

بعد وصولنا الى الفندق ، جلست بغرفتى التى شاركتنى بها وفاء صامته كعادتى ولم يتغير شيئاً فى روتينى .. أقضى وقتى كله فى القراءة، وإختلاس نظرة بين الفينة والأخرى من شرفة غرفتنا .. حاولت هى أن تقنعنى بالخروج من الغرفة ، إلا أننى شعرت بأن الوحدة تليق بى ..

مر اليوم الأول وانا مازلت أمكث خلف جدران الغرفة .. وفى يومنا التالى صممت وفاء ان نخرج سوياً من الغرفة والإنضمام للآخرين ، وافقت مشرطة عليها أن يكون خروجى من الغرفة فقط لزيارة الشاطئ ليلاً .. عند وصولنا للشاطئ شعرت بأن هناك شيئاً غريباً بالمكان لا أعلم ماذا يكون .. شعوراً برغم غرابته الا اننى شعرت بالراحة وانا فى هذا المكان ..

كانت السماء صافية والنجوم لامعة وكأنها تلمع لى خصيصاً ، فلم يلاحظ أحداً كم كانت جميلة وهى تلمع .. جلست على الشاطئ أتأملها مع صوت أمواج البحر وهى تتسابق للوصول نحو الشاطئ ..

بينما الآخرون جلسوا بعيداً ، يكاد يصلنى صخب أصواتهم التى ملأت المكان حولى .. كان الهواء يداعبنى وكأنه أراد أن يمنحنى بعض السكينة .. أنظر للأمواج وكأنها تسألنى عن ما

أخفيه بداخلي من أحاديث يصعب البوح بها لأحد .. تسرد لى أسرار البعض ممن جلسوا بنفس المكان ، وتطلب منى أن أبوح بما داخلي مثلهم ..

سمعت صوت سيدة تتحدث مع وفاء وباقي الأصدقاء .. تقول لها بثقة " سأقرأ لك وأعرف ما تخفيه ، وما ينتظرك " .. يبدو لى أنها "قارئة ودّع" ، ولكنها لا تشبه قارئىن الودّع الذين سمعنا عنهم كثيراً .. إنها إمراة خمسينية ترتدى ثياب عصرية وتحمل بيدها حقيبة صغيرة أخرجت منها أوراقاً تشبه "الكوتشينة" قالت لهم أنها تسمى "تاروت" .. لم أهتم كثيراً لما تفعله .. عدت انظر مرة أخرى للبحر وأمواجه .. بعد بضع دقائق إقتربت منى وفاء وإثان من الأصدقاء ومعهم تلك السيدة ، جلسوا بجوارى ويبدو على وجههم الإهتمام بتلك السيدة .. طلبت منها وفاء مازحة .. أن تخبرها السيدة عن ما أخفيه فى قلبى ؟..

نظرت السيدة نحوى نظرة ثابتة .. ثم سألتها وفاء ..

- إخبارينى كيف سيشفى قلبها من الألم الذى تكتمه بداخلها ؟

إبتسمت السيدة .. أتعلمين بأنكما متشابهتان وكأنكما خلقتما أخوات ؟ ..

- انا و "مريم" بالفعل أخوات فقد جمعنا الأمل فى الحياة برغم الألم .

تابعت حديثهما ولكنى أختلف عن الجميع بأفكارى .. لم تروق لى فكرة الإستبصار للمستقبل ، فأنا لم أؤمن بمثل هذه الخرافات يوماً .. رفضت الفكرة كلياً وأخبرتهم بأننى لا أريد أن اخوض تلك التجربة .. ولكن زاد إلحاحهم أكثر ، فأقترح أحدهم بأن تستبصر له أولاً هو وحبيبته التى جلست بجواره تنتظر بشغف شديد دورها فى القراءة ..

عيناها كانتا شديدة اللمعان وهما ينظران لبعضهما فى إنتظار قارئه التاروت لتخبرهما بما
تحتويه تلك الأوراق من مفاجآت لهما .. أخبرتهم تلك المرأة وهى تنتظر لهما بإعجاب شديد ، بأن
والد أحدهما يرفض زواجهما .. وسوف يضطر الحبيب للسفر لبلد غربى ليوافق والدها على
زواجهما .. نظرا الحبيين لبعضهما وكأن ما تتحدث عنه تلك المرأة صحيح .. صمت الجميع ..
وقالت وفاء لقارئة التاروت وهى تشير نحوى : إقرأى لتلك الفتاة .. نظرت المرأة لى نظرة ثاقبة
قبل ان تفتح الأوراق ، ثم قالت :

- هل مازلتِ لا تؤمنين بالقدر ؟

أجبتها وانا مندهشة من بصيرتها القوية .. كيف تعرفين ! ..

- اعرفك جيداً يا ابنتى .. فالأشخاص الذين يلتصق بهما قدرهم اشعر بهم سريعاً .

- لم أومن به ولكنى إستسلمت له ، حتى أنى أصبحت شخصاً قديراً لا يعاند قدره مهما كان
مؤلماً .. نظرت المرأة للأوراق لثوانى ثم نظرت لى وهى تبتسم ..

- سيكون قدرك أفضل مما تظنين ، وسيزول ألم قلبك بعد أن تذوقين طعم العشق .

- إرتبكت .. ولكنى لن أترك قلبى ليقع فى عشق احد .

- إن الأمر ليس بما تريدين أنتِ ، بل إ بما يخطئه قدرك لكِ .. العشق قدرك ، وتلك مشيئته
"وأشارت نحو السماء"

سألته وفاء بلهفة : ومتى وكيف ستقابل هذا العشق ؟ ، هل تستطيع تلك الأوراق الإجابة على

هذا السؤال ؟

- سيكون عشقاً قديراً ، ولن تستطيع الهروب من قدرها ؟ .. ستشفى جميع الأمها بسببه .

- من سيكون السبب ؟ .. عن ماذا تقصدين ؟ ، عن العشق أم القدر ؟

لم تنطق المرأة ببنت شفة على سؤال وفاء .. لملت أوراقها وغادرت فى صمت .. سألتنى وفاء
وهى تبسم : هل فهمت ما الذى تقصده تلك المرأة؟! ..

أجبتها بلامبالاة مصطنعة ، انا أخبرتك من البداية يا وفاء بأننى لا أؤمن بتلك الخرافات .. فلن
يكون قلبى لأحد وأنت تعلمين كيف عانى هذا القلب ليظل صامداً ..

مازال حديث قارئه التاروت محفوراً بذاكرتى حتى بعد عودتى .. هل يمكن أن يكون حديثها
صحيح ؟ .. أعلم بأن قلبى تألم كثيراً ولن يسمح للعشق بأن يصيبه ، فلن يكون ذلك قدراً بل
ستكون لعنة قد أصابته .. فأنا لا أحتاج إلى عشق يقتل ما تبقى من كيانى .. ولكن قدرى كان
محتوماً .. فالعشق كُتب على قلبى دون إرادتى ، ولم تكن كلمات تلك المرأة مجرد تكهنات كاذبة
..

لم يكن لقائنا الأول مُدبراً ، بل قديراً .. كان مجرد لقاء عابر أمام المشفى التى كانت والدتى
تتلقى بها علاجها ..

أتذكر ذلك اليوم .. بل أنا لا أنسى أى حديث دار بيننا حتى لو كان صغيراً .. مازلت أتذكر نظرتة لى يوم لقائنا الأول ؛ كان شديد الثقة بنفسه ..

حينما إنتهت والدتى من فحصها الطبي غادرنا المشفى ، ووقفنا ننتظر سيارة أجرة ..

فتذكرت أننى نسيت الأوراق الطبية الخاصة بوالدتى مع الطبيبة ، فتركتها تنتظر السيارة وصعدت السلم مسرعة للعودة للطبيبة مرة أخرى ، إصطدمت به .. لم يكن مجرد صدام عابر ، بل كان شرارة العشق التى اشتعلت بداخلى .. كان تعارفى بذلك الرجل هو الحدث الأعظم فى حياتى .. نظرت له نظرة سريعة ، لم أقصد أن أدقق فى ملامحه ولكن وسامته سرقت نظرتى ، وكأن الزمن توقف مع تلك النظرة .. شاباً ثلاثينياً وسيماً ، عيناه سوداء عميقتان لا يستطيع أحد تفسير ما يملؤها من كلمات .. تلك النظرة السريعة كانت كافية لشعورى بجاذبيته الشديدة ..

حاولت إظهار عدم أهتمامى به برغم إنجذابى لوسامته .. كانت لا مبالاى وتجاهلى لوسامته هى شرارة العشق بالنسبة له .. "كيف يمكن لشخصاً طبيعياً ان لا يقع فى عشقه من النظرة الأولى كما إعتاد مع كل الفتيات اللواتى تعرفن إليه " ! ..

أخذت الأوراق من الطبيبة وعدت مسرعة لوالدتى .. إندهشت عندما وجدته يقف بجوار السيارة .. ينظر نحوى بثقة شديدة وكأنه ينتظر منى أن أبادله نظرة إعجاب تزيده ثقة بنفسه .. ولكن لم أكرث له " ربما متعمدة " .. ثم رحلت .. " يبدو أننى فى تلك الصدفة لم أنتصر انا على القدر ، بل إنتصر قدرى على " ..

عُدت للبيت .. وبدأت اتفحص الأوراق الطبية .. ولكنها لم تكن أوراق والدتي ، بل كُتبت عليها
إسم (عادل زيدان) .. من هذا الرجل ؟! ، وكيف تبدلت الأوراق ؟! .. هل يمكن ان يحدث
خطأ كهذا ! ..

ذهبت فى اليوم التالى للمشفى أحاول ان اجد تفسير لهذا الخطأ .. فقد أخبرتني بأن شخصاً ما
سأل عن أوراقى وأخذها ..

- سألتها بحدة : من هذا ؟ ، أنا لا أعرف أحداً ، ولم أرسل أحداً لإستلام الأوراق !

- انه شاباً ثلاثينياً يُدعى عادل وقد أخبرنى بأنه واحداً من أقاربك، وسوف يُسلمك الأوراق بنفسه
..

يبدو إنه نفس الشخص الذى كُتبت إسمه على الأوراق الموجودة معى .. تساءلت لماذا فعل ذلك
!؟

غادرت المشفى بخطوات متناقلة وأنا شاردة أفكر فيما حدث .. من يكون ذلك الرجل ؟ .. ولماذا
فعل ذلك ؟ وكيف علم بوجود أوراقا لى بالمشفى ؟

إصطدمت به للمرة الثانية .. ولم تكن تلك المرة صدفة ولكنها كانت مدبرة منه .. نظرت له
بإقتضاب .. هل لقائنا هذا ايضاً صدفة ؟

إبتسم .. " وقد ضاعت تساؤلاتى فى إبتسامته " ..

تركنى فجأة ورحل بخطوات واثقة وهادئة ، دون أن يتقوه بكلمة ..

يا له من مغرور ! .. ولكن إبتسامته ساحرة ..

خرجت من المشفى .. وجدته ينتظرني بجوار سيارة فارهة أوقفها بجوار سيارتي التي وضع فوقها ملفاً مغلقاً ..

- سألني بإبتسامة : هل كنتِ تبحثين عن تلك الأوراق ؟

إلتقطت منه الأوراق بلهفة ، وتفحصتها مندهشة ، إنها أوراق الفحص الخاصة بوالدتي ! .. كيف أخذتها من الطبيبة ، ولماذا ؟ .. ومن أنت ؟

ضحك بثقة .. ثم أخرج من سيارته روزنامة صغيرة كتب فيها رقم مد يده لأخذه .. قائلاً :

- أنا عادل زيدان .. وهذا رقمي ، إذا كانت لديكِ رغبة في معرفة إجابات لتلك الأسئلة ، إتصل بي ..

ثم إلتقط الأوراق الخاصة به من بين يدي قائلاً : إن تلك الأوراق لى .. إنها مجرد فحص نصف شهري أقوم به للإطمئنان على صحتي .. ثم إقترب من أذني هامساً بثقة :

- سوف أنتظر إتصالك الليلة .

أنهى كلماته القصيرة ورحل تاركاً خلفه نيراناً قد إشتعلت بقلبي ..

الساعات تمر مسرعة وأنا أفكر هل يجب ان أهاتفه ؟ .. كان تفكيري مشوشاً ومشتتاً .. والفضول كاد يقتلني .. يجب أن أجد إجابات لتلك التساؤلات التي أطاحت بعقلي كالإعصار .. والا ربما سأصاب بالجنون ..

جلست خلف مكتبي أحاول أن أكتب جمل عشوائية خوفاً من الإستسلام لتفكيري به .. ولكني لم أستطيع أن أكتب حرفاً واحداً .. إن هذا الرجل يسيطر على عقلي ! ..

إستقرت أفكارى أخيراً أن أتحدث اليه .. ولكن كلما حاولت الإتصال به كنت أترجع سريعاً .. فقد كان قلبي يخفق بشدة مع كل محاولة .. حتى إستجمعت شجاعتي وتحدثت اليه .. كان لصوته رنيناً مميزاً وهو يتحدث .. عرّفته بنفسى "صاحبة الأوراق الطبية " ولم أذكر إسمى .. حاولت أن أكون صارمة لأجد إجابة لتساؤلاتى وأنهى حديثنا سريعاً ، بينما هو فقد فاجأنى بضحكة ساخرة .. فسألته ممتعضة :

- لماذا تضحك ؟

. أجاب متصنعاً الجدية : لأننى فزت برهانى مع نفسى ، وكما توقعت سوف تتواصلين معى اليوم .

- ولماذا توقعت أن أتصل بك اليوم وليس فى يوماً آخر !؟

- لا تحتاجين إجابة لسؤالك ، فأنتِ تعلمينها جيداً .

حاولت أن أنهى سلسلة الألغاز التى يحاوطنى بها وسألته بتحدى .. لماذا إستلمت أوراقى الطبية ؟

- سوف أجيب على كل تساؤلاتك ولكن أحتاج منك أن تعدينى بشيئاً ما .

- وما هو ذلك الوعد ؟

- أن لا تكون تلك المحادثة هى الأخيرة بيننا ، ما رأيك فى ذلك ؟

إندهشت ، لماذا يطلب منى هذا الطلب ؟ .. وبماذا يجب ان أرد ؟ هل أوافق ؟ .. لكنى فى النهاية إستسلمت لما شعرت به فى تلك اللحظة .. فأنا أتوق بشدة لمعرفة من يكون ولماذا يفعل كل هذا معى ! .. أخبرته بأننى أوافق ولكن بشرط أن يجيب على جميع تساؤلاتى ..

أجابنى .. لقد سألت والدتك عندما كانت تنتظرك أمام المشفى عن سبب وقوفها .. فأجابته بما حدث معكم بكل تفاصيله .. وأخذت انا الأوراق من الطبيبة وقمت بتبديلهم بالأوراق الخاصة به ..

- ولكن كيف أخبرتك والدتى بتفاصيل زيارتنا للطبيبة وهى مريضة !

- لأنها فقط أخبرتنى بإسمك (مريم) ولكنها شردت .. هل هى حقاً والدتك ؟ .. إنها أخبرتنى

فى بداية الحديث إنها لا تعرفك .. ولكنها تعرفك بإسم مريم !

- ليس من شأنك .. ولكن ولماذا فعلت كل هذا ؟ .

أجاب بثقة شديدة : لأننى أرغب فى التقرب منك .

- هل تعرف من أكون !؟

- بل أرغب فى معرفة من تكونين .

- ولماذا ؟

- الن تكفين عن التراشق بالأسئلة ؟

- الن تجيبنى أنت عن التساؤلات التى بدأت تُحطم فضولى ؟

- لن تكون تلك المحادثة هي الأخيرة بيننا ، هل تتذكرين ما إتفقنا عليه ؟ .. سأجيبك على جميع تساؤلاتك لاحقاً .

أنتهى حديثنا وأنا أشعر بأن قلبي على وشك أن يُسرق مني ، فهو إقتحم عالمي الخاص وإستطاع بكل سهولة أن يثير بداخلي فضولاً ربما لم يستطيع شخص آخر أن يفعل مثله من قبل .. لم تكن تلك المحادثة هي الأخيرة بيننا .. فتوالت أحاديثنا عدة مرات .. وفي كل مرة كان يحاول بسلاسة أن يتوغل في عالمي أكثر .. أين أعيش .. من تكون عائلتي ؟ .. كيف كانت طفولتي ؟ .. كان شديد الفضول في أن يعرف كل شيء عني سريعاً ، ولكنني كنت اتعمد التهرب من فضوله وسيل تساؤلاته ..

تسائلت كثيراً لماذا أشعر تجاهه بتلك المشاعر المتضاربة .. أعشق سماعه حين يتحدث ، ولكنني أخاف من فضوله .. أعشق نظراته لي ، ولكنني أتهرب منهما دائماً خوفاً من أن يلاحظ إعجابي الشديد بعينييه .. أعشق حديثه حين يخبرني عن حياته ، ولكنني أخاف أن يتوغل هو بحياتي .. إنجذابي له غير متعمداً ، ولكن هناك ما يدفعني نحوه .. وكأن شيئاً ما يدفعني للمجهول .. أقف دائماً عاجزة عن إيجاد سبب لعدم قدرتي على الإبتعاد عنه .. أو أن أجد مبرراً لضعفي أمام تلك القوة التي تسلبني إرادتي حين يتصل بي وأرد مسرعة متلهفة لسماع صوته .. ولكنني لم أجد سوى السير في هذا التيار طواعية ولا أعرف ماذا ستكون نهايته ..

كانت أحاديثنا سطحية للغاية ، فقد كنت اتعمد عدم التحدث عن حياتي الماضية ولا عن حاضري ولا حتى مستقبلي ، بينما هو كان يحدثني كثيراً عن حياته .. كيف مضت .. وكيف يشتاح لشعور العائلة التي أفتقدها منذ قراره أن يواجه الحياة بمفرده بعيداً عنهم .. شعرت بأنه يريد أن

يقمى فى حىاته .. فقد أصبىء حدىنا شبه يومى .. أصبىء أعرى ءىءاً ماذا ىب وماذا ىكره وما لونه المفضلى .. برعم إءءلافنا الذى باء واضعاً بشءة فى كل شىء ..

فى كل مقابلة لنا كان يأءضى فى رءلة لعالمه الخاص أكثر ، بىنما انا فكنت أسءءم الإءءلافات بىننا ءافعاً لى للسىطرة على مشاعرى ءءاهه .. أءاول أن أضع ءلك الأءءلافات بىننا كءاءز ءءى لا ىءرب منى أكثر ..

- هل لاءءت بأننا مءءلفان ءاماماً ؟

- الا ءعلمىن بأن للإءءلاف لءة خاصة ءءعلنا نعوص فى عوالم أخرى لم نكن نعلم عنها شىء ؟

- ءءب أنء الاغانى الغربىة ، بىنما أنا لا أءبها .. أعشق أنا اللون الأسود ، بىنما انء لا ءءبه .. ءءمىن انء ءائماً فى عالمك الخاص ، بىنما انا لا أفضل ءءول الغرباء فى حىاىى .. كىف لم ىشعرك هذا الإءءلاف بعرابة وءوءى فى حىاىك !؟

- أنا أرعب بوءوءك فى حىاىى بسبب ءلك الإءءلافات .. ءءى إن كنت لا أعرى شىئاً عن حىاىك سوى إسماء واحءاً فقط لك .

- ولماذا ءءاول أن ءءرب من المسءءىل ؟

- ومن قال أنك من المسءءىلات ؟

- وهل ءشعر انء عكس ءلك ؟

ضحك .. لقد عءءء للءراشق بالإسءلة .

لقد عءء أنء للمراوغة وعدم إءابىى عن السبب الءقىقى الذى ىءفعك للنعوص فى عالمى !..

- ولماذا ترفضين السير مع هذا التيار الذى يحاول أن يجذبك نحوى ؟ .. أنا أرغب بأن يجذبنى هذا التيار إليك .. فكلما حاولت السير عكسه كلما جذبنى هو إليك .. لا أعلم لماذا يفعل بنا هكذا ! ، ولكنى مثلك لا أستطيع مقاومته .. أشعر بأن قدرى يجبرنى أن تكونين انتِ عائلتى الوحيدة.

العائلة ! .. العائلة هى كل ما نمتلك فى تلك الحياة ، إذا كانت حقاً عائلة متماسكة ومترابطة .. حاولت جاهدة أن أجعل حديثنا عابراً يخلو من العمق فى التفاصيل .. كان يتعجب من تمسكى بوضع حواجز بيننا لا يعرف أسبابها .. ويسألنى مراراً :

لماذا لا يُثير فضولى معرفة من يكون ؟ .. كنت أحاول دائماً بأن أخبره بإننا لسنا أكثر من كوننا أصدقاء ، او أقناعه بأن علاقتنا لا تُسمى لها ..

أخبرنى ذات يوم عن سؤال أحد أصدقائه له عن مكنون علاقتنا ، هل نحن عاشقان أم فقط أصدقاء ؟ .. كان سؤال صديقه كأنه باب من التساؤلات قد فُتح بعقله حول مشاعره نحوى .. وأضاء نوراً حول عتمة قلبه .. وربما جعله هو أيضاً يفهم أن تلك العلاقة لم تكن كباقي علاقاته السابقة ، وأنه سيكون مرغماً على بذل مجهوداً عميقاً فيها ليصل الى قلبى .. ولكنه أيضاً حاول أن يستبعد تلك الأفكار ويقنع قلبه وعقله بأننى مجرد فتاة مختلفة عن جميع الفتيات اللواتى عرفهن .. "وإن هذا فقط ما يجذبه لى " .. كلانا أراد إنهاء معاناته مع هذا الحب ، ولكن لم تكن تلك الفكرة كافية لتتقف أمام تلك القوة التقديرية التى تجمع بيننا كلما أردنا الرحيل ..

لكنى كنت أكثر تمسكاً بالرحيل ، كانت قوة الماضى تلاحقنى أينما ذهبت بمشاعرى وعقلى .. وكلما حاولت الهروب من تيار تلك المشاعر ، كان يتمسك هو بى أكثر .. كان يستخدم الصبر

طريقاً للوصول الى مبتغاه .. فكان حلمه الوحيد أن أستسلم له وأن أكمل إمبراطوريته الخاصة التي بناها على أجساد النساء ، وأن أصبح واحدة من فتيات اللواتي جمعتن به رغبته في إمتلاكهن .. ولكن لم يكتمل حلمه بذلك فمن وضع طُعماً لإصطياد فريسته ، لن يتوقع أن تصطاده الفريسة بلا تخطيط منها .. كان يُدرك بأنه هو من صنع اللعبة وفرضها علينا ، ولم يدرك بأن كلانا قد فُرض علينا هذا العشق .. لم يدرك بأنى وقعت في عشقه منذ لقائنا الأول .. فقد كان أقوى من قوتي .. لقد هزمنى .. كان خصام يومان بسبب نقاش حاد دار بيننا درساً قوياً لى لأتأكد بأننى وقعت في عشق هذا الرجل .. أعشقه بطريقة لن يفهمها هو .. ولكننى لن أستطيع الاعتراف بهذا الحب ، لن أجرؤ على ذلك بينى وبين نفسى .. لن أومن به حتى لو إمتلاً كيانى كله به ..

تمنيت كثيراً بأن يعشقتنى أحدهم ويتمسك بحبه لى .. فأنا إفتقدت الحب فى حياتى فباتت أمنية صعبة المنال بالنسبة لى .. حين باغتتى عادل بسؤال :

- هل يمكن ان تحبين رجلاً مثلى يوماً ؟

- مازحته .. وهل تستطيع ان تعيش فى عالم العشاق ؟ .. إن رجلاً مثلك تنطبق عليه مقولة الفريد كابوس " الحب هو عدم حصول الرجل على ما يشتهيه " فأنت لا تعرف الحب وكيف يكون ألمه حين لا تستطيع إمتلاك ما ترغب فيه .

- ربما لم أشعر بالحب من قبل فعبارات الأسرة لا يُتقن سوى لغة الجسد .. اما المشاعر ؟ فلا يعرفن كيف تكون ، وإذا أرادت إحداهن أن تربطنى بالحب فستكون مجرد تمثيلية هي بطلتها الوحيدة .. اما أنا لا تستهوينى الفنون الكاذبة ، ولكنى أدركت بأن هناك امرأة كتبها القدر لى .. وأصبح قلبي مُعلقاً فى كلماتها ، بل فى إبتسامتها .. أعتقد بأنه معلقاً فى حكاياتها التى تسردها لى عن أشخاص لا تعرفهم الا فى خيالها ..

- ألم تتذوق العشق يوماً ؟

- أقرأ عنه فى الروايات .. أعيش تفاصيله فى كل رواية ومع كل بطل فيها كنت أتمنى أن أكون مثله .. ولاسيما إذا عشقهم أفلاطونياً .

- إندهشت .. أفلاطونياً ! .. كيف ترغب بحب أفلاطونى وللجسد فى حياتك لذة خاصة !

- ربما يكون الخمر والجنس والسجائر هم فقط تنفيس عن ما أعانى منه .. ولكنى بعد كل ليلة أمارس فيها إحدى المحرمات كنت أتألم أكثر من تلك اللذة .. أشعر بالضياع .

- مازحته : يبدو أن لك فلسفة خاصة فى الحياة .

- إبتسم .. هل يمكن أن تحبين رجلاً يشبهنى ؟

- ولماذا يشبهك أنت بالتحديد ؟

- رد مازحاً : لإننى رجل وسيم .

- بل نرجسى بإمتياز .

- ضحك : وليكن .. لكنى نرجسى وسيم .

- ضحكنا بشدة .. ثم باغتني بجدية قائلاً : هل يمكن أن تعين في حب رجلاً مثلى يا مريم ؟
- لا أعلم شيئاً عن الأقدار ، ولكنى وضعت مئات الحواجز بينى وبين الرجال ، ولن أسمح لأحد بأن يقتحم عالمى الخاص ويتخطى تلك الحواجز .
- وماذا لو إستطعت أن أتخطى أنا تلك الحواجز ؟
- لا أظن ذلك ، فمن حاول قبلك ان يتخطاها فيجد نفسه خارج حياتى قبل أن يُفكر حتى فى ذلك .
- إذآ ، سوف أتحداكِ على ذلك ، سأخطاها وستحبنى يوماً .
- وماذا لو خَسرت ذلك التحدى؟
- لقد إعتدت على الإنتصار ولم أخسر شيئاً يوماً ، فأنا على يقين أنكِ ستكونين لى يوماً .. حينها إن وقع قلبك فى شباكِ حُبى هل ستكونين أكثر شجاعة من قلبك وتعترفين بحُبك لى ؟
- إننى أعلم مسبقاً بأننى لن أحبك يوماً ، ولكننى قُبلت بالتحدى ، سوف أتحدى بالشجاعة حينها وأعترف لك بأننى أحببتك إن حدث ذلك .
- تحدانى واثقاً فى قدرته على الوقوع بى فى عشقه ، وأن لم تستطيع أى فتاة النجاة منه .. وقُبلت أنا التحدى يقيناً بأن قلبى المتألم لن يُفتح لأحد حتى لو رغبت أنا بذلك .. بينما هو لم يكن تحديه لى منذ تعارفنا سوى رغبة فى إمتلاكِ جسدى كباقى الفتيات ، ولكن المشاعر أصبحت بداخله أعمق من نزوة ليوم واحد .. ولكنه بات يعرف بأن الحب لا علاقة له برغبات الجسد "حتى وإن كان بداخلنا تلك الرغبة" ..

نحن لم نخطط أن نقع فى العشق .. ولا أن تكون تلك الصدفة التى جمعتنا هى بداية الطريق الذى لم نخطط لنهايته .. لكنه القدر عندما يضع قوانينه الخاصة ، لا يستطيع أحداً تغييرها ..

لقد تغيرت قوانين اللعبة ووقع عادل فى الحب مرغماً ، ووقعت انا فى حبه بلا أمل ، هذا ما كنت أخاف منه .. أخاف من الوقوع فى حب مجهول .. لا أعلم كيف ستؤول بنا تلك المشاعر ، لكننا انجرفنا مع ذلك التيار ..

تسألت عن تلك الأسرار التى دُفنت بداخلى .. هل سيحولها عشقى له لنور يضىء حياتى أم ستكون ناراً تحرقنى !!.. فلطالما تهربت من فتح هذا الصندوق الأسود الذى أخفيه بداخلى .. صندوقاً يحتوى على ماضى مؤلم حاولت الهروب منه لسنوات طويلة .. ولكن عادل بشجاعته كان يمنعنى دائماً من الإنجراف خلف تيار الخوف .. يجبرنى على المضى قدماً معه .. فتوالت أحاديثنا .. يحاول فيها بكل الطرق ان أستسلم له ، ولكنه وجد نفسه يستسلم لى كطفل صغير لا يستطيع أن يبتعد عن حضن أمه من فرط تعلقه الفطرى بها .. بل أنا صديقه التى يسرد لها مُغامراته العاطفية وتفاصيل الليالى المُحرمة التى عاشها دون خجل .. لقد تخطت علاقتنا حدود المُسميات والشكليات التى كان يضعها مع كل النساء اللواتى تعامل معهن ..

ذات يوم مازحته مُتصنعة الجدية بأننى سوف أرحل لبلد آخر ، ويجب أن أودعه سريعاً قبل الرحيل .. لم أتوقع أن مُزاحى سوف يجعل دموعه تتهمر أمامى خوفاً من رحيلى عنه .. نظرت لدموعه بدهشة ..

تساءلت ، هل هذا هو نفس الرجل الذى تحدانى يوماً أن يوقع بى فى عشقه ! ..

لا أعلم كيف ومتى تحولنا الى عاشقان يشبهان أبطال الرويات ! .. لقد كانت قصتنا أشبه بكارما
فهى مزيجاً من لذة العشق والعذاب .. لا يعلم كلانا لماذا تعرّف على الآخر ؟ ..

يشبهنى عادل كثيراً فى عدم ثقته بالآخرين .. فلم يكن له الكثير من الأصدقاء المقربون سوى
"آدم" صديقه الوحيد .. يعمل شرطياً ، ولكن برغم قسوة مهنته الا إنها لم تغيره كثيراً فقد كان
ودوداً ، وحديثه بسيطاً .. فعندما قررت الإختفاء عن عادل ، لم أتوقع أن يبحث عنى بهذا الشكل
الجنونى .. طلب من صديقه آدم بأن يبحث عنى فى كل مكان .. وكانت مفاجأتى بأن آدم
إستطاع معرفة اين أسكن بكل سهولة وأن محاولة إخفاء ماهيتى كانت فاشلة ..

حضر لمنزلى متفائلاً وكأنه على يقين بأنه سوف يقنعنى بالعودة لعادل .. ولكن كانت جلستنا
صامتة قرابة النصف ساعة .. ينظر هو حوله ويتفحص كل زاوية من زوايا المنزل الذى اعيش
فيه .. يحاول ان يتعرف على الفتاة التى إستطاعت أن توقع عادل فى عشقها .. لقد بدا له
منزلى متواضعاً بالمقارنة بباقى الفتيات اللواتى عرفهن عادل فكانوا من أبناء الأثرياء .. حاول أن
يجد طريقة للتحدث معى ، لكنه لم يكن يعلم من أين يبدأ حديثه معى ، حاول إقناعى بالتحدث
الى عادل قبل أن يخبره هو عن مكانى ..

- إنه يبحث عنك فى كل مكان ، يعلم بأن لا أحد سيجدك ، وأخبرنى بأنك من المستحيلات فى
حياته ..

- لا تخبره عن مكانى فلن أكون انا سبباً فى سعادته التى يحلم بها ..

لقد أثار حديثى فضوله كثيراً .. وحاول معرفة سببه ولكن دون جدوى .. وبعد مرور ساعات من
الجدال بيننا قرر أن يخبرنى بما يعانىه عادل بسبب إختفائى عنه ..

- لم أخبرك منذ الدقيقة الأولى أن عادل برغم عدم ثقته فى الآخرين وثق بكِ أنتِ .. حقاً لا أعلم ما هذا القدر من العشق الذى جمع بينكما .. فأنا لم أعود أن أرى صديقى مهزوماً ومستسلماً هكذا من قبل .. إنه عشقك لدرجة لم يتحملها قلبه ، فصديقى الذى لم ترفضه إحدى النساء يوماً أنتِ اليوم ترفضين حُبه لكِ .. أرجو منكِ العودة له فهو يتألم كثيراً ..

صمتت وأنا أستمع لحديثه وأنا احاول إخفاء إشتياقي الشديد لعادل ، أو أن يكتشف كل هذا الألم بداخلى ، وبرغم أننى للحظة ضعفت لدرجة كانت أقرب للإستسلام بأن أطلب منه أن يخبر عادل بأننى حقاً أتألم كثيراً وأنا بعيدة عنه .. إلا اننى صمدت أمام ضعفى وحاولت التماسك أمام آدم ، وأمام رغبتى الشديدة فى العودة له .. وحاولت أن أبدا أكثر صرامة مما قد يخفيه قلبى وأنا أتحدث معه..

حاولت أن أرسم على وجهى تعبيرات حادة ، لامبالية .. برغم ما أعانيه بداخلى ..

- ربما يشعر عادل بهذا الألم لأننى رفضته وهو لم يعتاد الرفض من قبل .. أعتقد أنه سيكون بحال أفضل بعد مدة قصيرة ، عندما يجد فتاة تناسبه ؛ فهو رجلاً لا تستهويه النساء العفيفات .. فمن تعود على عشق الجسد ، لا يعرف كيف يكون عشق القلوب .. كانت كلماتى قاسية وكاذبة ، فأنا أعلم بأن كلانا يتألم ..

صمت آدم لثوانى وهو يُحدق بى ، ثم قال :

- إنك تعشقيه مثلما يعشقتك تماماً !

نظرت له متعجبة ، ثم إستطرد قائلاً : لا تتعجبين يا عزيزتى فأنا أرى العشق يفيض من عينيك ،
مثلما رأيته فى عيون عادل تماماً .. لقد بدا واضحاً لى أن لكما نفس النظرة حين تحاولون إخفاء
مشاعركما ..

لهذا سوف أخبرك ما حدث بقلبه وحياته منذ أن دخلتى لعالمه وعشقتك هكذا ..

اللوحة الثانية

- يكفى شرباً للخمر اليوم يا عادل ! ، حالتك مُزرية .. لا اعلم لماذا تتألم كل هذا الألم ؟ .. لقد أصبحت ضائعاً منذ إختفائها عنك وكأنها سلبت منك عقلك .. من تكون تلك الفتاة لكى تتألم كل هذا الألم من إختفائها عنك؟! .. إنها كباقي النساء ، كلهن متشابهات يا صديقى .. يجب عليك أن تتساها سريعاً .. وتذكر أن هناك المئات من النساء يتمنين فقط أن تبادلهن إبتسامه عابرة ..

- أننى لست عادل الذى كان يعيش حياته لامبالياً بشئ مهما كانت أهميته يا آدم .. لقد أصبحت شخصاً آخر لا هوية له سوى أنه أصبح عاشق هربت منه حبيبته وأصبحت دواخله فارغة .. فلن تغير نبرتك الحادة معى شيئاً ، ولا تعنيفك لى حتى أقلل شرب الخمر وأنسى مريم ، لن يجبرنى شئ على نسيانها بتلك السهولة .. فقد وقعت فى هواها ..

ليتتى أستطيع نسيانها بتلك السهولة يا آدم ، إنها ليست مجرد تجربة كباقي تجاربي النسائية .. إنها لا تشبه أحداً من النساء ، ولا يجب أن تقارن بهن ..

عشقى لها لم يكن نزوة أو جسداً رغبت بإملاكه .. بل هى رواية تمنيت أن يكون نهايتها فقط زواجى منها ..

حين قابلتها للمرة الأولى صدفة ، وعندما أصطدمت بها ، نظرت لها متعجباً كيف مرت تلك الفتاة بجوارى دون أن تلتفت لى ! ، كيف لم تتجذب لى كما تفعل كل النساء معى ، إنها حتى لم

تنظر لى وكأنها لا ترانى .. لقد أثار ذلك غضبى كثيراً وقررت أن تكون تلك الفتاة لى ، كنت حينها معتقداً بأننى صائداً محترفاً بالصيد وأمتلك كل خبرات وأسلحة الصائد المحترف .. ربما كنت كذلك مع جميع النساء عدا مريم ..

لقد حاولت إصطيادها فغرقت أنا فى بحر عشقها .. وأنا على يقين أنها لم تخطط حتى لذلك .. فهى كانت تهرب من الوقوع فى عشقى منذ لقائنا الأول .. تهرب بكل ما أوتيت من قوة .. ولا أعلم لماذا ؟

ولكننى حاولت أن أبقئها معى ، حاولت أن أحل ألغازها ، وأن أتخيل كيف كان ماضيها .. هل كان ماضيها سيئاً للدرجة التى تجعلها تضع كل تلك الحواجز بينها وبين الرجال ! .. على مدار عاماً كاملاً أحاول أن أضع بين أيديها كل الحلول التى ترضى بها لتتقبلنى كحبيب .. او حتى كزوج يرغب أن يقضى معها ما تبقى من حياته .

- كزوج ! .. هل قدمت لها عرضاً بالزواج يا عادل ؟

- نعم .. رغبت فى الزواج بها، بل أيضاً توسلت لها بأن لا ترفضنى .

- كيف فعلت ذلك ؟! .. إنك حتى لا تعرف من تكون تلك الفتاة!

- لا أعرف عنها سوى أنها روحاً أخرى إحتلتنى .. سلبت منى راحتى .. لقد إعتدت أن أقوم بكل أعمالى وهى معى ، تقاسمت معها أفكارى .. تقاسمت أسرار أخجل أن ارويها لغيرها .. لا أعرف حقاً ماذا فعلت بى لأعشقها الى هذا الحد ! .. إنها ليست أكثر جمالاً ممن عرفتهن من الفتيات ، ولكنها زرعت بداخلى الأمل الذى إقتلعتة عائلتى منى .. برغم ما بداخلها من ألم أكاد أشعر به

كلما تحدثت معها .. كلماتها بها عمق لا أستطيع تفسيره .. تستطيع عناق ألامى بسهولة ..
تبقيني دائماً راکضاً خلف لغزاً احاول فك رموزه لأصل اليها .. أتوق دائماً لأتغلغل بداخلها واقرأ
ما تخفيه عنى .. وأظل مشدوهاً اليها لأطفأ نيران كل الثورات التى خلقتها بداخلى منذ عرفتها ..
انها لم تمثل الحب يوماً لترضىينى .. إنها حتى لم تبذل مجهوداً لتجذبني إليها ، بل كانت دائمة
التذمر ، وصعبة الإرضاء .. لم تفعل المستحيل كباقي النساء حتى أقع فى حبها ، بل كانت
ترفض حديثنا فى بعض الأوقات عن الحب .. وكأن العشق بالنسبة لها صفحة أوراقها مقطعة
ومتناثرة فى الهواء بلمسة صغيرة من يديها ..

ذات يوم لقد أخبرتنى بأن الحب هو هبة سماوية ، قد منحه الله فقط لبعض الأشخاص الأنقياء
على هذه الأرض ..

- سألتها متعجباً : وهل نحن لسنا من هؤلاء الأنقياء؟ ..

- إبتسمت ، بل نحن أنقياء ولكن ليس بما يكفى ليمنحنا الله حباً كالذى أعنيه ..

- وما هو نوع الحب الذى تعنيه؟

- إنك ستشعر أنه عشق من روح الله ، عشقاً خالياً من رغبات الجسد .. إن كنت محظوظاً
ومنحك الله حباً مثله ، ستشعر بأن هناك طاقة من السماء قد أحدثت تغييراً فى كل حياتك دون
إرادتك ، ستجد كل ما حولك ممتلئاً بنوراً لا تعرف مصدره ، ستشعر بأن الله قسم السعادة على
تلك الأرض ومنحك أنت النصيب الأكبر منها .. سيكون حبيبك هو أنت .. فقط أنت ..
الأشتياق الذى ستشعر به فى غيابه سيكون لذة حتى وأن أسماه الآخرين عذاباً .. لن يحمل
مسمى سوى انه حباً من السماء ..

- ويرأيك من يستحقون ذلك الحب ؟

- يستحقونه من يريدهم الله فقط ، وليس من يسعون إليه .

- هل تعتقدن بأننى سأكون من هؤلاء الذين يستحقونه ؟

- أتمنى إن يمنحه الله لك يوماً ، وأن يحبك شريكك بنفس القدر .

كل ما أخبرتنى به مريم عن الحب قد جربته بكل تفاصيله الصغيرة .. إن حبها كطاقة من النور
أضاءت طريقي وغيرت كل شئ فى حياتى .. علمتنى العشق ولم تُعلمنى كيف أنساها عندما
ترحل عنى .. لم تخبرنى يوماً أن لهذا الحب ألماً لن أستطيع أن أتحملة ..

لم أكن أعلم أنه سيأتى يوماً ما ويقتلنى غياب امرأة عنى .. امرأة لا أعرف عنها سوى إسمها
وذكريات ترفض أن تخرج من عقلى وقلبى .. حتى حديثها العابر معى مازال محفوراً بذاكرتى ..
مازلت أتذكر صوتها وهى تتادبنى .. كلماتها القاسية حين تغضب منى ، وضحكتها البريئة حين
أحاول أرضاؤها ..

حين قابلتها للمرة الأولى جذبتنى بنظرة واحدة عابرة ، وأثارت فضولى بلامبالاتها معى ، فخلقت
بداخلى رغبة فى أن تكون واحدة من فتياتى ، كان هدفى الوحيد أن أوقعها فى حبى من أجل ليلة
حميمية واحدة .. ولكن تغيرت بداخلى كل نيران الرغبات وتحولت إلى نيران من العشق ..
فأصبحت تلك الفتاة هى كل ما أملك بهذا العالم ..

لثلاثون عاماً كنت أعتقد أن النساء حُلِقن لنستمتع معهن فى علاقات عابرة ، وليس هناك مُتعة
أكثر من الخمر وممارسة الحب مع النساء .. ولكنها علمتنى أن هناك شيئاً يجعلنا أكثر سعادة

من هؤلاء .. وهو العشق .. فأنا لم أعشقها بل أدمنتها .. حتى اننى أدمنت إخبارها بأننى أخاف
فقدانها .. تجمعت بها كل رغباتى وإدمانى .. هروبها الدائم من الإعتراف بحبها لى كان يجذبنى
إليها ، تجذبنى رغبة ملحّة فى سماع كلمة عشق واحدة منها .. بل كان عشقى لها يجرفنى
كالتيار نحوها كلما حاولت هى الهروب منى..

إهتمامها بتفاصيل الصغيرة كان يربطنى بها ، فأنا لم أعود أن يهتم أحد بتفاصيلى مثلما كانت
تعمل هى .. كانت تلاحظ أدقها وكأنها تحفظنى أكثر من نفسى ، وتلومنى على أخطاء إرتكبتها
بقصد أو بغيره .. حتى تشبثت بعشقها وكأنها قطعة منى لا يجوز لها أن تتركنى .. بل عليها أن
تحبنى .. تعشقنى انا فقط وللأبد .. هى مجبرة أن تحبنى ، مجبرة أن تهتم بى ، مجبرة أن تبقى
لى وحدى .. كما أُجبرت أنا على عشقها .. ولكن كيف أجبر إمراة قوية مثلها على ان تعشقنى
؟

إنها لا تعترف بالعشق وليس بها نقاط ضعف .. أعتقد أحياناً بأنها إمراة فولاذية لا يستطيع أحد
تحطيمها .. تستطيع هى ان تسبب اعنف الثورات بداخلى ، ولا يستطيع انا حتى الأقتراب منها
..!

فى تلك المرة التى إختفت فيها ليومان متتاليان ، كنت اشعر بأننى أقف على حافة هاوية لن
ينقذنى منها سواها ، أبحث عنها فى كل مكان وانا لا أعرف أين تسكن ولا أين أجدها .. كانت
فكرة إختفائها ترعبنى كثيراً كلما فكرت فيها ولكننى تلك المرة قررت أن انتقم منها ، ان أحطم
كبريائها .. لم أكن أعلم بأن ما قررت فعله سوف يؤلمنى انا ، فشعورى بأننى لا أريد فى تلك
الحياة سواها كان يؤلمنى .. يؤلمنى كثيراً .. لا اعرف كيف تقرأ أفكارى ! .. فكلمنا حاولت كسر

الحواجز التي تبنيها بيننا ، كلما كانت تبعد عنى أكثر .. وكأن بداخلها قوة غير معلومة تسيطر على عقلى ..

إعتقدت بأن قضاء ليلة حميمية مع فتاة غيرها سيؤكد لى بأنها مجرد رغبة فى إمتلاك إمراة صعبة المنال .. وإن كل ما أشعر به وهماً صنعه عقلى بسبب إختلافها عن الأخريات .. ولكن ما زرعتة هى بداخلى أعمق من أن تمحوه ليلة مع إمراة أخرى لا أعرفها ، فذلك الفراش الذى جمعنى بإمراة غيرها لم يكن سوى أملاً أبرهن به لنفسى بأن لا وجود لمريم فى عقلى ولا قلبى .. ولكننى أخفقت فى إنتزاعها من داخلى ..

فلعبة النسيان لم تخلق لعاشق مثلى .. فلعبة النسيان سلاح ذو حدين إما أن تنتصر عليه او يفتلك .. لم أتأهب لتلك اللعبة بما يكفى ولكننى كنت أنوى أن انتصر انا عليها وأقتلعها من داخلى ..

كانت ساحة اللعب خاوية لى أنا وتلك الفتاة التى لم أعرف حتى إسمها .. كانت تجهيزاتى الوحيدة للعب هى إحتضان تلك الفتاة وأنا ثمل تماماً حتى لا أفكر فى مريم وأنا بين ذراعى تلك الفتاة .. ولكننى لم أنتصر فى اللعبة ولم أستطيع نسيانها ، بل رأيت وجهها فى تلك الفتاة .. شممت رائحتها ولمست جسدها هى .. أنها تعيش بداخلى واعلم جيداً بأنها لم تكن هناك فتاة غيرها بين ذراعى .. بل أننى أصبحت ملكاً لها .. كما أخبرتنى تلك الفتاة بإننى همست بأسم مريم حين عانقتها ..

سألتنى : كيف تضاجع إمراة وانت تعشق إمراة أخرى لهذا الحد ! .

أنكرت وجودها وكأننى احاول ان أثبت للفتاة بأن قلبى لن يعترف بالعشق ولم ينهزم امامه يوماً .. " ربما حاولت ان أثبت ذلك لنفسى " .

- انا رجل لم يخلق ليحب ، كلكن متشابهاً ، لقد خلقتن فقط لنتمتع بإجسادكن .. فأنا لا أومن بما يُسمى بالعشق.

إبتسمت الفتاة ساخرة وكأنها تعلم بما أحاول أخفاؤه ..

- أتعلم بأنك لا يليق بك الكذب؟! .. فأنت لم تعشق فقط ، بل أنت مقتول فى هواها .. هل فتاتك إسمها مريم؟.

- كيف تعرفين من تكون؟

لقد كنت تتفوه بإسمها طوال الوقت دون وعى وانت تعانقنى .. كأنك تحاول عناقها هى .. لا أعلم إذا كان عناقك لها غضب منها أم شعوراً بالإطمئنان وأنت معها .. كانت لمستك لى عنيفة وكأنك تريد ان تؤلمها .. تؤلمها كثيراً .. ولكنك برغم ما تعانیه من إشتياق لها كنت ترسل لها رسائل مشوشة تطالبها بالعودة لك .. فأصبحت لمستك لى بعنف تارة ، وتارة أخرى بفيضان من الحنان .. أتريدها جساً مثلنا جميعاً؟

ثورت .. إنها لا تشبهكن .. ولن تشبه إحدانك يوماً .. إنها قطعة قد إختزلت منى ويتعود لى .

لم تفلح جميع محاولاتي بإقناع نفسى بأن ما يربطنى بمریم فقط رغبة فى إمتلاكها .. وانا أعانق تلك المرأة ، لم أكن أرى أمامى سوى مريم .. لقد خاننى قلبى وعقلى ورفضاً ان يكونا لغيرها .. غيابها يقتلنى وأبغض قلبى حينما يكون ضعيفاً امام نسيانها .. أحاول ان أقنع نفسى بأن عدم

وجودها لن يؤثر فى حياتى .. ولكننى أعود مرة أخرى للبحث عنها فى كل مكان ربما أجدها فيه

..

برغم مرور عام على لقائنا الأول ، وبرغم قربها منى لهذا الحد ، الا أنها كانت ترفض أن تُفصح

عن هويتها معى .. تجبرنى دائماً على الرضوخ لرغبتها فى إخفاء ماهيتها..

لم أكن أعرف عنها سوى معلومات ضئيلة للغاية .. أعلم انها تعشق قراءة الروايات مثلى تماماً ..

وأن روايتها المفضلة " كبرياء وهوى " تلك الرواية التى كنت أغار منها عندما أراها تحملها بداخل

حقيبتها فى كل مكان تذهب إليه ..

أتعلم يا آدم ، بأن مريم تشبه أبطال تلك الروايات التى كنت أقرأ عنهم ليالى طوال ، ولكننى لم

أتخيل يوماً أن تكون هى إحداهن كبطلة فى رواية حياتى ..

حين أستمع لموسيقى بيتهوفن .. أبتسم .. أبتسم بشدة وكأننى أتلهف على ذكرى صغيرة منها ..

حينما كنا نتشاجر كانت تسمعها بصخب لتجبرنى أن أخفض صوتى، كانت تثير جنونى حينها

وهى تنظر لى بلامبالاة ، ولكنها تجبرنى ان أستسلم لها ضاحكاً .. أعتقدت أنها الوحيدة القادرة

على أن تجعلنى أتألم وهى أيضاً من تستطيع إن تجعلنى أبتسم ، حتى أنها أصبحت تتحكم فى

مزاجى ..

إن لها فلسفتها الخاصة فى كل شئ حتى أنها كانت تثير رغبتى دائماً بمعرفة ما يجول بعقلها ،

تغرينى أفكارها ، فأحاول بكل الطرق تعرية عقلها لإخراج ما به من أفكار والإستمتاع بما فيه ..

فبرغم أنها فتاة ثلاثينية ، الا أنها كانت تشعرنى دائماً بأنها امرأة تبلغ من العمر المئات من

السنوات .. فهي تمتلك من الحكمة ما يجعلها تتحدث بسلاسة فى السياسة والدين وتناقشنى ببراعة فى جميع الروايات العالمية ، إنها تحفظهم جيداً ..

عندما كانت تسرد لى بعض الروايات التى لم اسمع عنها سابقاً ، كانت تأخذنى معها فى رحلة ممتعة بداخل عقلها وكأن تلك الروايات من نسج خيالها هى .. كنت أشعر بأنها أديبة تتصلت من الأدب وتركت عالم الأدباء خلفها وهربت .. ولكننى كنت أتعرف على العالم من خلال عقلها وقلبها .. وأتعلم كل شئ فى الحياة من فلسفتها الخاصة التى لا أعلم ما سرها ..

كانت تعارفنا مجرد تحدى بأن أفعل المستحيل لتقع فى عشقى كرجلاً إستباح أجساد النساء .. فوقعت انا مرغماً فى هواها ، على الرغم أنها لا تبذل جهداً فى التقرب منى .. بل تهرب دائماً وتجعلنى أقف امام مجهول .. حاجزاً الصمت والأسرار الذى تضعه بيننا دوماً يخيفنى أحياناً ولكنه يغرينى كثيراً .. لا اعلم الى أين سنؤول معاً ، ولكننى عشقت المجهول معها ..

كانت تطلب منى دائماً الا اتوغل فى عالمها الخاص خوفاً من أن نجد أنفسنا فى طريق لا نعلم نهايته .. لكننى كنت أتمسك بها أكثر وعشقى لها يجبرنى أن أخوض من أجلها آلاف المعارك .. بداخلى رغبة قوية فى معرفة السر الذى تخفيه عنى .. ذلك السر الذى كان يجبرها على الهروب منى خوفاً من أن أعرفه .. كانت تزداد عناداً وغموضاً معى كلما وقعت فى حبها أكثر .. وكلما حاولت أن أساعدها على تخطى الألم الذى ألمحه دائماً بعينيها وأسمع أنينه فى كلماتها المبحوحة .. كلما شعرت هى بأننى نقضت عهدى معها بألا أحاول إقتحام حياتها ..

ليتها تتذكر عندما كانت تمازحنى "بأنها جيشى الوحيد فى هذا العالم .."

اليوم أنا عُدت يتيماً بدونها .. بداخلي طوفان من التساؤلات .. ليتتى اعلم من تكون ؟، او ما كانت تخفيه عنى ؟.. او أعلم ما الذى أجبرها على الرحيل !.. أو ربما عادت لوطنها ! ..

حين طلبت منى مريم منى العودة الى بيت عائلتى ، كانت تصف العائلة بأنها وطننا الذى لا يجب ان نغيب عنه طويلاً ، والأمان الذى أفقده وبسببه أشعر بالضياع .. ولكنها لم تكن تعلم بأنها الوحيدة القادرة على ان تمنحنى الأمان .. لا تعلم بأنى أخفى عنها الكثير من الآلام .. أتمنى لو إمتلك الشجاعة لأخبرها عن عائلتى التى تركتها ولن أعود إليها .. أسرد لها قصص والدتى التى خسرت عملى كطبيب بسببها .. كيف كنت سأخبرها بأن العائلة هى من حولت طبيباً مجتهد بعمله الى رجلاً خاوياً من كل شئ حتى المشاعر ..

تركنتى مريم ببساطه حتى أعود لوطنى الذى لم يكن يوماً اماناً لى .. لقد ظننت ان عملى كطبيب سوف يكون طوق النجاة من تلك الذكريات التى تحاصر عقلى منذ طفولتى .. فقد تركت طفلى الداخلى يعانى ويتذكر كل ما مر به .. فطفلاً فى عمر العشر سنوات لن يفهم لماذا صفعت والدته سائناً أخفق فقط فى تنظيف سيارتها .. مازلت اتسائل كيف فعلت هذا أمام عينى ولم تكثرث لمشاعرى ! .. كيف تصفع رجلاً فى الأربعين من عمره أمام طفلاً ولم تكثرث لمشاعره ! ..

ظلت تلك الحادثة مسيطرة على عقلى كلما صعدت تلك السيارة معه وقادها وانا أجلس بالخلف ، كنت أنظر له طويلاً واتسائل : لماذا لم يترك العمل بعد ما فعلته والدتى معه ! .. حينها قررت ان اسألها مستجمعاً شجاعى ..

- كيف تصفعين رجلاً فى هذا السن هكذا بلا رحمة ؟

لم تفهم فى بداية الأمر ما أعنيه ، او ربما تناسست ما فعلته وكأنه شيئاً عادياً .. ثم فهمت ما أعنيه .. تغيرت ملامح وجهها وبدت حاده ..

- وما الذى يعينك فى هذا يا عادل ؟ .. إنك مازلت طفلاً صغيراً لن تفهم سبب تلك الصفحة .

- لكنى سأفهم ، ويجب أن تخبرينى عن السبب .

ردت بحدة .. حتى لا يتناول علينا مرة أخرى ، ويجب أن يرد على سؤالى وهو مطأطأ رأسه ولا ينظر بعينى .

- ولكنه أب لثلاثة أبناء ، وأنتى صفعتيه أمامى .. كيف سينظر فى عين أبنائه بعد ذلك دون أن يشعر بالدونية أمامهم ؟

- لو شعر بالخجل ، لكان ترك العمل حينها دون تردد .. ولكن هؤلاء الفئة من البشر يلهثون خلف المال دون الإكتراث لكرامتهم مثلما تعتقد .

كلماتها كانت كالصاعقة على عقلى من شدة غرابيتها .. كيف تفكر أمى بأننا مختلفون عن بقية البشر! .. كيف تفكر بأن هذا الرجل يلهث خلف المال لمجرد سعيه خلف رزق ابنائه ! ، .. هذا الحديث الذى قالته أمى بلامبالاة ، لم يكن تأثيره على مؤقتاً ، بل أصبحت نظرتى "للعن سعيد" مختلفة ..

أصبحت أنظر إليه وكأنه شخصاً يجب أن أعامله بإحترام أكثر مما كنت .. كنت أتعهد أن أجلس بجواره فى السيارة وقت عودتى من المدرسة الثانوية .. أتحدث إليه كثيراً وأسأله عن أبنائه وعن أحوالهم .. كان تقربى منه يزعج والدتى كثيراً ، ولكنى كنت ازيد قربى منه أكثر كلما ازعجها هى

هذا .. لا أعلم هل تصرفى معها صحيحاً أم لا .. ولكنى لاشعورياً كنت أحاول تعويض العم سعيد عن ما فعلته والدتى معه منذ سنوات .. ولكن أمى كانت أكثر عناداً منى .. لقد قررت طرد العم سعيد من القصر كله بحجة انه أصبح كهلاً لا يستطيع العمل .. وعينت سائقاً خاصاً لى ظلت لقراءة العامين لا أعرف ما هو أسمه .. لم تكن تروقنى الفكرة حينها ، ولكنى رضخت لأوامرها مُرغماً .. ولكن قرارها لم يغير شئ بينى وبين العم سعيد ، بل زاد قربى منه أكثر وأصبح حديثنا أكثر عمقاً .. وأصبح أبنائه رفقاء لى وكأنهم أصبحوا عائلتى .. شعرت معهم بدفء العائلة ، والترابط بينهم قوياً برغم قلة مواردهم .. أوقاتى معهم هى الشئ الوحيد الذى يشعرنى بالسعادة .. ولكن القدر أحياناً يُبدل أحوال ما نعيشه فى لمح البصر دون حساب لما سوف نُعانى منه بعدها .. أصاب العم سعيد مرضاً نادراً أجبره على التقاعد من العمل .. ولكن ظروفه المعيشية كانت أقوى من مرضه فأجبرته على العودة للعمل لدى والدتى مرة أخرى وهو مريض .. حاجته للمال كانت أقوى من مرضه ، ولم يكن امامه طريقاً سوى طلب أموال من والدتى لسد نفقات الأطباء والأدوية .. ولكنها رفضت ونهرته للمرة الثانية أمامى ..

- ومن أنت لتطلب أموالاً منى .. أنت مطرود من عمك ؟

- لقد بحثت طويلاً ولم أجد من يقرضنى اموالاً لقضاء دينى وسد حاجات ابنائى .. لقد عملت معكم منذ عشر اعوام ولم اطلب يوماً منحة او قرض ، كنت أكتفى براتبى الضئيل فقط .. ارجوكى سيدتى اقرضينى اموالاً أحتاجها بشدة .. أو أقبلينى كخادم للعمل فى قصرك فأنا بحاجة للعمل .

- الا ترى وجهك فى المرآة .. أنت رجلاً ميتاً وترغب بالعمل هنا ! .. من يقبل رجلاً يكاد يتنفس بصعوبة كخادماً .. يجب أن تخرج من قصرى ولا تعود مرة أخرى ..

عاد العم سعيد لمنزله ذلك اليوم يشعر بالحسرة ويعانى من ألم شديد فى الصدر .. لم يكمل حياته لليوم التالى وفارق تلك الحياة القاسية .. وفاته لم تكن حدثاً عادياً فى حياتى ، بل كان السبب الرئيسى لرؤية حقيقة والدتى .. المال كل شئ ، المال يصنع كل شئ ، المال يشتري كل شئ ، نحن بدون المال لا شئ .. هكذا كانت تفكر دائماً .. بينما انا ؟ فكنتم أعلم بأن المال لا يشتري السعادة ، لا يستطيع خلق الترابط بين أفراد العائلة الواحدة ، لن يمنع مريضاً من الموت .. فقررت ان تكون دراسة الطب سلاحاً أحارب به المرض من أجل العم سعيد .. إنه منحنى شعوراً بالقوة لأصل لهدفى ..

بالطبع لم تروق فكرة دراسة الطب لأمى حينها ، فهى لطالما كانت تحلم بأن أدرس المحاسبة لأستلم أعمال العائلة ، ولكن قرارى كان حاسماً ولن أغيره من أجلها ، إنه وعدى للعم سعيد يوم وفاته .. بأن تكون دراسة الطب من أجله هو وكل مريض يتألم ولا يمتلك مالاً لعلاجيه .. شنت أمى حرباً من أجل عدم إلتحاقى بكلية الطب .. ولكن فى نهاية الأمر إلتحقت بها ، ربما كانت ترى ان مصلحتى ومصلحة العائلة تكمن فى دراستى للمحاسبة ، وانها كانت أنسب لعملى بشركات العائلة الضخمة ، وأكون جديراً بإستلام تلك الثروة الكبيرة .. ولكن لم يجبرها تصميمى على قرارى من الإستسلام لرغبتى ، فكانت فى نهاية سنوات دراستى قد قررت بأن تحرمنى من العمل كطبيب .. لأن عملى كطبيب فى إحدى المستشفيات الحكومية عاراً على عائلتها العريقة حسب قولها ..

- كيف تعمل فى مشفى حكومى ولنا فى كل مشفى خاص طبيباً من عائلتنا ؟ .. يجب عليك أن تترك العمل فى تلك المشفى فى وقت قريب والا ستكون عاقبة قرارك صعب ان تتحملها .

- وماذا سأخسر بعد خساراتى الكثيرة ؟

- وهل أمثالك يعرفون ما هو مذاق الخسارة ؟ .. إنك شاباً ثرياً نشأ فى قصر من قصور الملوك .. ينفق الألاف من الدولارات شهرياً على ملابسه التى يتسوقها من الخارج .. يمتلك سيارة فارهة يقودها بين أصدقائه فخوراً بها .. ماذا خسرت إذا ؟!

- خَسِرْتِكِ أَنْتِ كَأَمِ كَانَ يَجِبُ عَلَيْكِ أَنْ تَحْقِقِينَ لِي رَغْبَاتِي وَلَا تَكُونِينَ ضِدَّهَا .. خسرت العم سعيد الذى كان بمثابة أباً لى وتوفى متأثراً بحديثك عن مرضه وفقره .. خسرت عائلته التى فتحت أبوابها لى وإحتوتنى وقت حاجتى لعائلة .. أنا خسرت كل شئ أملكه بسببك أنتِ .. ولذلك قررت ان لا أخذل مرضى لا يملكون المال بسببك أنتِ .

- إذا فأنت سوف تتحمل قرارك .

برغم رد أُمى الذى بدا مختصراً ونظرتها التى كانت شديدة الحدة ، وكأنها تلمح لشيئاً سوف يحدث ، الا أننى لم أتوقع أنها سوف تسلب منى كل أحلامى بدون تردد ..

تلك الليلة الشديدة البرودة كان ميعاد مناوبتي بالمشفى .. كانت ليلة هادئة تماماً حينها .. خرجت من غرفتي لأتفقد الغرف جيداً قبل العودة لأخذ قيلولة لدقائق .. كان جميع المرضى فى حالة إستقرار ، والعاملين باقون فى غرفهم يحاولون التدفأة من شدة البرد .. عُدت لغرفتي أحاول مقاومة شعورى بالنوم .. حتى أنقذنى العامل بالقهوة وهو يبتسم ..

- توقيتاً مميزاً للقهوة يا محمد ، ولكن كيف عرفت بأننى أحتاج إليها الآن ؟!

- أعلم بأنك يجب الا تنام من أجل ذلك المريض الذى يتلقى علاج التنفس .

- نعم ، يجب ان لا أنام ، لأنه يحتاج لأن أتابع حالته بعد ساعة .

كانت تلك الليلة هى آخر ليلة عمل لى بالمشفى .. لا أعلم كيف غفوت ! .. او كيف حدث ذلك ! .. مرت ساعات وأنا أمكث فى عالم آخر لا اعلم شيئاً عن ما سأواجهه .. إستيقظت من غفوتى وجدت مدير المشفى يقف أمامى وينظر لى بغرابة وكأنه يحاول فهم ما أصابنى حتى غفوت كل تلك الساعات ! .. يحدثنى بحدة ..

- لقد توفى مريضك يا عادل .. ذلك المريض الذى كان من واجبك الحفاظ على حياته .. هل كان نومك مقصوداً ؟!

- كان ردى يشبه طفل يتلثم فى حديثه عن موضوع يسبق عمره بأعوام .. كيف توفى المريض ! .. هل نمت كثيراً ؟ .. لا اعلم كيف نمت كل تلك الساعات سيدى ! .. هناك شيئاً غريباً قد حدث معى ، أوكد لك ذلك .

كان مديري محقاً في ما قاله عن خيانتى لمهنتى .. نعم ، انها ليست حادثة عادية بل كان حدثاً
مدبراً .. لقد كنت سبباً فى وفاة مريضاً ليس له ذنب سوى إهمالى بالعمل والنوم وقت عملى ..
هكذا كانت آخر كلمات نعتى بها زملائى قبل ان يتم توقيفى عن العمل كطبيب .. خرجت من
المشفى متسائلاً كيف حدث ذلك !؟

لم يكن أمامى سوى البحث عن السبب .. تمنيت ان لا أعرف السبب ، ليتنى لم أعرف بأن أمى
فعلتها لتعاقبتى وتجبرنى لكى أتحمّل قرارى كما أخبرتنى فى آخر حديث بيننا .. ولكنها أجبرتتى
عن الرحيل عن القصر ، ذلك القصر الذى إعتقدت أمى بأنه سيكون أقصى خساراتى ، ولكنها
لا تعلم بأنها سوف تجبرنى أن أكون شخصاً آخر تتمنى يوماً بأن يعود طبيباً ..

لقد تحولت حياتى بعد أن كنت طبيب يحترمه زملائه ويقدرّون عمله بمشفى حكومى رغم قدرته
على العمل بأكبر المستشفيات ، وأصبحت فى نظر عائلتى وأصدقائى والعابرون فى حياتى شاباً
ثرياً مدلاً يعيش ليله متنقلاً بين النوادى الليلية ويخرج وفى نهاية سهرته ويجواره فتاة لا يعرفها
مسبقاً ، يمارس معها كل أنواع الفجور ، وترحل صباحاً وهو نائم .. هكذا كان يعتقد بأنه ينتقم
لنفسه من والدته وعائلتها الأرسـتقراطية .. ربما نجح فى إنتقامه ، وجعل حياة والدته جحيماً
بالبحث عنه ليل نهار فى كل مكان .. تلهث خلفه خوفاً من أن يصيبه مكروهاً بسبب تصرفاته
.. لكنه بالمقابل خسر روحه .. أصبح عبارة عن جسد فقط يتحد مع أجساد النساء ليعيش متعة
مؤقتة تنتهى حين يستيقظ وينظر لنفسه فى المرآة ويرى رجلاً قد تغيرت ملامحه لشخصاً يشمئز
مما فعله ليلاً .. أصبح رجلاً هوايته صيد النساء ولاسيما أصعبهن فتلك أصبحت لعبته المفضلة
التي يخطط لها أصعب الخطط ويركض خلفها ويدفع الكثير من الأموال من أجل إيقاعها فى
شباكه ، حتى تقع فريسته ثم يتركها لتواجه مصيراً لا دخل له به .. لم تتزلزل كيانه يوماً دموع

أنثى تستجديه ليمنحها سترآ ، ولم تُضعفه دموع أنثى تلهث خلفه ليقع فى عشقها .. بل كلهن أجسادآ يتمتع بهن ويتركهن لمصيرهن المحتوم .. هكذا كانت حياته قبل أن تدخل مريم الى قلبه وتستوطنه .. لقد إستطاعت أن تعيده للحياة مرة أخرى .. أن تمنحه روحآ ليعيش بها .. أعادت له ضميره ليتذكر كل ما فعله مع الأخريات .. بل حتى إنه يتمنى أن تقبل مشاركته ذلك الألم ، وكأنه يريد أن تحمل معه ذنوبآ إقترفها هو ، أو تساعده على تخطيها .. ربما ثقته فى قوتها على تخطى الألم كانت طوق نجاة له .. ولكنه وجد نفسه فجأة أمام عشق ظاهره جنة يتمنى أن يعيش بها ، وفى باطنه إجتماع كل أنواع الألم ..

إن عشقها أقوى من الإعصار وأصعب من البركان الذى يحطم كل شئ دون رحمة .. لقد أصبحت عاجزآ أمام قوة ذلك العشق ، لا أستطيع العودة كما كنت رجلاً شهوانياً لا يعترف بالحب ، ولا أستطيع الإقتراب منها كحبيبة .. إنها تشبه الحلم تماماً .. أتمنى أن ألمسها بيدي ، ولكنها تتبخر فى دقائق بمجرد أن أستيقظ من غفوتى ..

علمتني بأن الحب يجب أن يكون عذريآ فى بدايته .. فالحب هو هبة سماوية ، وليس فى السماء عشقآ للجسد .. حتى أصبحت متيقناً بأننى أحببت روحآ وليس جسداً ، تعلقت بما تعلمته منها وبتأثيرها على عقلى الذى جعلنى أرى العالم بعينيها هى .. عالم ليس به الا الأنقياء من البشر .. لا أعلم كيف إستطاعت أن تشعرنى بذلك ! ، فأنا أعلم جيدآ بأن ليس كل البشر أنقياء ، وأعلم أيضاً بأنها ربما تألمت من البشر .. ولكنها لم تكن ترغب سوى بأن تشعرنى بذلك .. وكأنها إمراة خلقت من نور يضى كل شئ تراه بعينيها .. إستطاعت ان تسكن بداخلى ، وأن أعيش بروحها التى أخرجتنى من رحم الألم بسهولة .. أصبحت رجلاً ينتمى لها هى فقط ولا يعرف فى هذا العالم الكبير غيرها ، يبحث عنها بكل مكان لتعود روحه مرة أخرى الى جسده ..

اللوحة الثالثة

ينتمى كلاً منا الى وطن .. وطن يتحدث بلغته ، ويعتق ديانة سائدة فيه ، ويشارك في ثوراته حين يثور شعبه .. بينما أنا لا أنتمى الا لدواخلى .. لا أعلم عن الأوطان شيئاً غير ما أشعر به .. ما يبكىنى وما يسعدنى .. لم أكن أعتق غير ديانة والدى الذى لم أشعر بأنه وطنى بل وطن فرض عليّ أن أنتمى له .. لم أتوقع بأن يحدث أن يتحد قلبى وعقلى ودواخلى ويعلمون إنتمائهم لغيرى .. أن يعلنوا عصيانهم على جسدى ويثوروا من أجل العشق .. أن يعلنوا إنتمائهم لعادل .. كالنا أعلن إنتمائه للآخر .. ولكن عادل كان أكثر شجاعة فقد أعلن إنتمائه لى .. أنه أعتقنى كعبادة وعشق .. أما أنا فقد كنت أعاند كيانى .. أثور ضده وأشن حرباً ضد نفسى .. ضد قلبى وروحى التى أعتنقته .. أهرب من دواخلى حتى لا تخوننى وتعلن له بعشقى له .. أن أربط قلبى بمجهول لا أعلم الى أين سيؤول بى .. قتلت عشقى وأجبرت عادل على خسارتى ..

حين أخبرنى آدم بما يشعر به عادل من ألم ، أظهرت له لامبالاة مصطنعة خوفاً من أن أعود إليه .. خوفاً عليه من المجهول .. فباتت رواياتى التى أكتبها هى الأمل .. النور الذى يضى عتمة حياتى .. أشارك أبطالها الآمهم .. أشعر معهم بلذة العشق التى تسعدهم وألم الفراق الذى يبكيهم ..

.. إتصلت بى صديقتى وفاء من دار النشر تطلب منى أن أقابلها .. إنها رفيقة دربي وشريكة
الآمي .. الآمي التى حاولت إخفاءها عن الجميع حتى عن نفسى ، فمجرد الحديث عن تلك
الآلام يزيدنا مرارة بداخلى .. رافقتنى أيضاً سنوات الدراسة الجامعية وحتى تلك اللحظة ، فهى
الوحيدة التى عاشت ما بداخلى من ألم دون أن أتحدث عنه .. علمت عن حياتى القليل من
المعلومات ولكنها إكتفت بما تعرفه عنى وأرادت أن نكون سندا لبعضنا البعض .. حتى بعد أن
تزوجت وأنجبت طفلاها .. إستمرت معى كرفيقة الدرب ، وأصبحت لى عائلتى التى فارقتها منذ
سنوات طويلة ..

كان يوم الجمعة حين إتصلت بى وفاء هو عطلة دار النشر ، فأتابنى الفضول برغم لامبالاتى
التى تتعود عليها جميع من تعاملت معهم بالدار .. فأنا بنظرهم تلك الشخصية التى لا تهتم بكبائر
الأمر ولا بأصغرها ، ولكن إنتابنى الفضول لتلك المكالمات ، برغم أن أقابلها هناك
، وصوتها أيضاً لم يكن يستدعى القلق عليها ولكن إنتابنى الخوف من أن يكون حدث لها
مكروهاً ..

ذهبت للدار مسرعة وأنا مشتتة الأفكار .. وكل ما يهمنى هو أن تكون صديقتى بخير .. وجدت
إجتماعاً طارئاً يرأسه "السيد رياض" مدير الدار وصديقتى وفاء التى قابلتتى بنظرات يملؤها التوتر
والسؤال .. وإثنان من العاملين بالمطبعة ..

نظرت لهم متسائلة ، ماذا حدث ؟ .. ولكنى برغم نظراتهم التى يملؤها التوتر مازحتهم كعادتى :

- ماذا حدث لكم يا رفاق ، اليس اليوم عطلة ؟

أجابتنى وفاء وهى تحاول أن تخفى توترها عنى :

- كان يوماً طويلاً يا مريم .. فالدار كانت ممتلئة اليوم بالصحفيين الذين يرغبون في معرفة من هي الكاتبة التي يُرمز اليها بالحرفين (م . ح) ويكتب إسمها على غلاف الروايات الأكثر مبيعاً في السنوات الماضية ؟ .. والجميع يرغب في معرفة سر كتابة تلك الحروف من أسمك على الكتب التي يتحدث الجميع عن نجاحها .. وجميعنا لا نعلم كيف نرد على أسئلتهم ؟ .. ولا نعرف ماذا علينا أن نفعل ؟..

- قاطعها السيد رياض ممتعضاً وهو ينظر نحوى .. إسمعيني جيداً يا مريم ، أنا وعدتك منذ تعارفنا منذ سنوات أن لا أبوح لأحد بأى معلومة تتعلق بكِ ، وبرغم غموضك الشديد في إخفاء شخصيتك إلا أنني عاهدتك بأن لا يعرف أحداً من تكون كاتبة تلك الروايات التي يتحدث عنها الجميع حتى تسمحين لى أنتِ بذلك .. وحتى الآن لم أحاول أن اسألك عن سبب إخفاء شخصيتك عن الناس .. ولا اعلم لماذا لا ترغبين في إظهار شخصيتك لهم ، فالغريب ان العديد من الشباب الموهوبين غيرك يتمنون ان يعيشوا بين الناس كالمشاهير ويشعرون بنجاحهم !..

- سألته بغير إهتمام ، وما الجديد الذي حدث ليأتى الصحفيون الى هنا ؟ .. فروايتي الجديدة لم تصدر بعد !

- إنه كتابك الأخير يا مريم .. أنتى تعلمين ان الجميع يتحدث عنه ، فقد خُلقت حالة من التساؤل عن كاتبته .. فالجميع لاحظ وجود نفس حرفين إسمك عليه .. وربط الجميع بين كاتبة الروايات السابقة وكتابك .. ونحن نحاول منذ نجاح كتابك الأول أن نتهرب من الصحفيون الذين يأتون الى هنا بعد إصدار كل كتاب جديد لكِ .. ألم يحين وقت ظهورك للناس ؟ .. الم يحين الوقت لتكتبي إسمك كاملاً على أغلفة كتبك ؟ ويعرف الناس من تكونين ؟!

جلست وانا اتهدد .. كان الجميع ينظرون نحوى منتظرين إجابة على تساؤلاتهم ، بينما أنا تركتهم بخيالى وذهبت حيث كان هناك كثير من الذكريات تجول بعقلى .. أحاول أن أجد حلاً لمشكلة لم أحسب لها يوماً .. كيف سأعلن هويتى ومنها سيعرف عادل من أكون ؟ .. كم عاماً مضى وانا أستتر خلف حروف مموهة لإسماً وهمياً .. أتوارى عن الناس خلف كتباً أكتبها محاولة أن أمحو بها ألاماً بداخلى أو أثبت بها لنفسى أننى مازلت على قيد الحياة ، أحاول نسيان ماضى اعلم جيداً انه لن يمحوه حبراً على ورق .. لقد أخفق من أخبرنا أن الكتابة تزيل الهموم ، ولكن لا يعلمون بأن ذكريات كالمسح الذى يقتلنا ببطاً .. فأنا ليس بيدي حيلة سوى أن أكتب حرفان فقط من إسمى على أغلفة كتب هى الأشهر بنظر الجميع فيما عدا انا .. فالكتب بالنسبة لى هى فقط أحلاماً أتمنى أن أعيشها .. فكم بطلاً لروايتى أحببت أن أقابله بحياتى .. وكم بطلاً تمنيت أن أدوب فيه عشقاً من فرط حبى له وانا أكتب عنه .. وسيظل خيالاً أتمنى أن أعيشه ولكننى لن أعيشه يوماً .. فأنا خلقت لأكتب وليس لأعيش ..

لقد كان حديث السيد رياض حاداً وحاسماً لدرجة أنه طلب منى أن أعطيه قراراً سريعاً فى ذلك .. وأجبرته الظروف للمرة الأولى منذ تعارفنا فى أن يخبرنى بين إعلان هويتى للجميع وبين إنهاء ما بيننا من عقود ..

كانت وفاء تراقبنى بصمت تنتظر نحوى بين الفينة والأخرى ، وتنتظر ردى على حديثها الذى لم أسمع منه حرفاً ونحن فى طريق العودة للمنزل .. لقد كنت غارقة فى بحر من الأفكار التى إمتزجت بالقلق .. لم أتخيل أننى سأكون مجبرة أن اعلن عن هويتى يوماً ما .. ماذا يجب ان افعل مع السيد رياض ؟.. ذلك الرجل ذو العقد السادس من عمره ، الذى يعرفه الجميع بشخصيته القوية التى يحسب لها الجميع حساب .. وبأن قراره لا يغيره مهما كانت النتائج او الخسائر ..

لم يكن السيد رياض مجرد صاحب دار نشر يتعامل مع كاتبة مشهورة .. بل كان الأب الروحي لفتاة فى منتصف العشرينات من عمرها ، تبنى موهبتها دون تردد عندما قابلته للمرة الأولى بوجه شاحب خوفاً من رفضه لما تكتبه .. فمن ذلك الذى سيتقبل شابة لم يصدر لها عملاً من قبل ؟ .. ولكنه كان أكثر جرأة من غيره ولم يفعل كما يفعل الآخرون من أصحاب دور النشر .. فهو لم يتقبل كتاباتى عندما أصبحت كاتبة مشهورة ، بل آمن بموهبتى عندما كانت أكثر دور النشر ترفض التعامل مع الكتاب الجدد .. واستمر على عهده معى حتى النهاية .. فكيف لى أن أضعه موضع شك من الصحافة والإعلام .. وأن أتركه معرضاً لإتهاماتهم له بسرقة كتابات بعض الشباب الغير معروف هويتهم وطباعتها بحروف لشخص غير معروف .. يجب أن أتخذ القرار الذى لم أحسب له حساباً ذات يوم .. ولكن كيف أعلن عن هويتى وأنا أهرب من ماضى أغلقت أبوابه واحتفظت بصندوقه الأسود بداخلى .. كيف أعلن عن هويتى وأنا حاولت بكل قوتى أن أهرب بعيداً عن حبى الوحيد الذى أجبرنى القدر أن أهرب منه وأكتفى بحبه بداخلى خوفاً عليه من ماضى المؤلم ..

قررت وفاء أن تغير طريق العودة ونذهب سوياً لمنزل والدتها الذى هجرته منذ وفاة والدتها .. قالت أنها بحاجة لتبتعد قليلاً عن زوجها وابنائها الأثنين وتقوم بعمل شيئاً جديداً لم تفعله منذ ليلة زواجها .. او ربما كانت تعتقد اننا بحاجة للعودة لسنوات قليلة ماضية من أعمارنا نستعيد فيها ذكرياتنا .. فهى تعلم بأننى أنتمى بروحى وقلبى الى ذلك البيت .. كانت مُحقة ، نعم روحى تنتمى إليه .. كم إشتقت لرائحته ، فهو شاهداً على ألامى ، شاهداً على ذكرياتى معها ومع والدتها .. شاهداً على حنان والدتها ومحاولتها تضميد جراحي .. ومشاركتهم معاناتى وأنا أحاول

طمس هويتي القديمة ومحو إسم "مريم حامد" والبدء من جديد بحرفان فقط من إسمى .. كان بيتاً
يمتلئ بالدفء لدرجة تشعرني بالأمان الذي فقدته .. وأحتاج إليه ..

تجولت بالمنزل وأنا أتفحص حوائطه التي مازالت مُعلقة عليه صورنا القديمة انا ووفاء .. صورنا
ونحن بالجامعة كم كانت جميلة .. وقفت أتأملها ، لم الاحظ يوماً بأننى لا ابتسم بكل تلك الصور
.. ولكن وفاء كانت تبسم فى جميع الصور كعادتها .. وقفت بجانبى تتأمل صورنا .. لقد بدأنا
نشعر بالحنين لتلك الأيام .. برغم أننى لم أبتسم بها يوماً الا انها مبهجة كثيراً ، ربما لأنها تحمل
بداخلها أشخاصاً كانت تجمعنى بهم علاقة مميزة برغم سطحية صداقتى بهم ، او ربما أشعر
بالسعادة لأن وفاء تقف بجوارى بكل الصور .. نعم هى بجوارى منذ اللحظة الأولى لدخولى
الجامعة ..

لقد كان يومى الأول بالجامعة غريباً وكأننى سافرت الى بلد لا أتقن لغة شعبه .. ولا ارتدى
ملابس تناسبه .. ولا أشعر بالإنتماء له .. بل كانت بداخلى رهبة شديدة ، وقلق لا أعرف هل
هو من التجربة الجديدة أم لأننى لم أعتاد على التحدث مباشرة مع الناس ..

اتساءل :كم عاماً مضى وانا أشعر بالوحدة ؟..

كم عاماً مضى وانا لم أتحدث مع أحد ؟ .. كم عاماً وأنا ليس لى رفيقة سوى قطة صغيرة كانت
بحاجة الى لإطعامها .. أعتقد أننى كنت بحاجة أكثر إليها لتؤنس وحدتى فى منزل لا أرى فيه
ضوء الشمس .. تلك كانت حياتى فى بيت والدى ، كان مختلفاً عن بيت وفاء .. لا توجد به
شمساً تدفئنى فى ليالى الشتاء الباردة ، ولا نوراً يجعلنى أحلم كبقية البشر ..

أخرجت وفاء من مكتبها صندوقاً يحتوى على الكثير من الصور التي جمعناها أيام الجامعة وما بعدها ، وصوراً أخرى لعائلتها التي لم يتبقى منها أحداً ، فكان أخوهم والدتها التي توفيت بعد زواج وفاء بعاماً .. كانت وفاء تحرق بصورة قديمة جمعت والدتها ووالدها .. بدأت تتحدث عنهما بنبرة يملؤها الشجن ..

- كانا والداي مُحبان لبعضهما كثيراً ، ليتنى أعيش أنا وزوجي حياة مثالية مثلهما .

- ستكونين مثلها تماماً يا صديقتي العزيزة ، فوالديك زرعاً فيك الكثير من المحبة ، وستكونين أما عظيمة أيضاً كما كانت والدتك تماماً.

إبتسمت خجلاً وعادت تنظر نحو صور عائلتها ، ثم عادت تنظر نحوي في صمت ..

- سألتها : ماذا بكِ ؟ .. لماذا تنظرين نحوي بغرابة ؟

- الم تشتاقين لـ عادل يوماً يا مريم ؟

نظرت لها مندهشة وقلبي يخفق بقوة ، ولماذا تذكرته الآن ؟

أعلم أنك تتألمين يا مريم ، فما أصعب أن يهرب الإنسان من حبا ملاً حياته بالسعادة ..

تنهدت وتحدثت بداخلي متمنية أن لا تستمع وفاء لما أقوله أو ترى في عيني نظرات الأشتياق التي تملؤها ..

- إنه أحبك كثيراً يا مريم ، وأعتقد أنه كان سيحبك أكثر إذا علم بأنك كاتبة رواياته المفضلة ،

حتى الآن لا أعلم لماذا أخفيتني عنه ذلك ؟

تسألنى وفاء سؤالاً ربما لو أحببتها عليه سوف تتهمنى بالجنون ، فكثيراً ما كانت تطلب منى أن أعلن عن ماهيتى لعادل ، لكننى كنت أرفض معللة بأن الوقت غير مناسب ..

ولكن ماذا إذا أخبرتها أننى أهرب منه من فرط حبى له ؟

عدنا لتصفح صورنا .. لكل صورة منهم ذكرى مازالت عالقة فى ذاكرة وفاء ، ولكننى نادراً ما أتذكر اياً منهم ..

أخرجت وفاء إحدى الصور بلهفة وسعادة ..

- هل تذكرين ذلك الشاب الوسيم الذى يقف معنا بالصورة ، لقد كانت تتمنى كل الفتيات مواعدهته ؟ .. هل تتذكرين من هو ؟ .. إنه "سليم" الذى تزوج زميلتنا نرمين اللذان كانا يدرسا معنا فى الجامعة ..

- أحببتها ساخرة .. نعم أتذكره .. من كان يعتقد أن نرمين ستكون سبباً فى أن تخرج مؤلفاتى للنور ؟ ..

- جميع محاولاتها للإيقاع بكِ حتى تتضمن لقائمة أصدقائها الذين يعلم الجميع بسوء أخلاقهم باءت بالفشل ، وما زاد الأمر سوء حين وقع سليم فى حبك أنتِ وإبتعاده عنها .. كان هذا سبباً كافياً أن تكركه نرمين .. الا ان الأقدار كانت منصفة لكِ تلك المرة يا مريم .

- أنتى تعلمين جيداً يا وفاء أن سليم لم يكن يعنى لى شيئاً على الإطلاق ، حتى إذا أحببى هو .. اما انا فلا أبحث عن الحب .. فالأنثى التى تألمت من العلاقات طوال حياتها لن يفتح قلبها بسهولة وأنتى تعلمين ما عشته ..

كانت وفاء تتحدث عن الأقدار التي حاولت إسعادى ، ولكن حتى تلك المرة لم يكن النجاح حليفاً لى بتلك السهولة ، فما مررت به لم يكن مخططاً له منى ، ولكن نرمن خططت جيداً له ونتيجته لم تكن كما توقعت هى ..

لقد كان لقائى بنرمن أشبه بلعبة قمار لم ألعبها ، ولكنها هى من حاولت أن تلقى بالنرد وتنتظر أن تتجح خطتها ..

بعد إنتهاء سنوات الجامعة ، لم أكن انوى العمل بأى مؤسسة سواء حكومية او خاصة .. فأنا لم أكمل دراستى الجامعية بغرض العمل ، بل كان إكمال دراستى جزءاً من سلسلة أمنيات حرمنى القدر منها ..

كانت عادتى أن أجلس فى إحدى المقاهى ، أمارس التأمل برغم الصخب الذى يحيط بالمقهى " وهذا كان يثير فضول عمال المقهى كثيراً " .. إقترب منى أحد العاملين وهو يقدم لى قهوتى الصباحية وسألنى بإستحياء ..

- هل لى أن أسألك سؤالاً يثير فضولى منذ مدة .. كيف تستطيعين ممارسة التأمل فى مكان يحيط به الصخب من جميع الجهات !

- أجبته بإبتسامه هادئة .. الجميع يمارسون التأمل فى هدوء لأنهم يسافرون فى رحلة الى أعماقهم ، يرغبون فيها بخروج طاقتهم السلبية من أجسادهم وعقولهم ولن يحدث ذلك سوى فى مكان هادئ .. أما أنا فأمارسه وسط ضجيج البشر خوفاً من إغماض عيني بمكان هادئ خالى من البشر .. فأحياناً يصبح البشر أكثر أماناً من دواخلنا ..

- أتقصدين بأنك تخافين من أعماقك أكثر من خوفك من البشر !

- بل أعماقى والبشر يدهشانى دائماً بما يقدمونه لى .. فكلاهما مؤلم حتى لو أحبك .. ولكن البشر أمام عيني أراهم وأستطيع أن أبتعد عنهم إذا رغبت بذلك .. أما داخلى فلن أجد ملجأ منه سوى إليه ..

- لن أخفيك سراً ، هذه المرة الأولى التى أسمع فيها فلسفة كهذه برغم دراستى للفلسفة !

- إذا أنت دارس للفلسفة وتعمل فى مهوى لا يمت لدراستك بصلة ..

- إبتسم .. يأتى زوار كل يوم لهذا المكان ولكل منهم قصة مختلفة ، فأجد عقلى أصبح بارعاً فى قراءة لغة صمتهم .. مثلك تماماً ، فصمتك يحوى الكثير من الأحاديث .. إنه ليساً حباً عادياً شعرت به وإنتهى ، بل هو كالإعصار الذى إجتاح قلبى، حباً إستطاع أن يزرع الأمل من جديد فى حياتى .. إنه الوحيد الذى يرتجف معه كل كيانى .. أنتنفسه ولا أستطيع أن أتخيل أن أحيا بدونه ، ولكننى لا أجرؤ على الإقتراب منه ..

لم تكن قصتى معه لها نهاية كباقي نهايات الروايات التى كتبتها .. فجميع قصص الحب لها نهايتان فقط إما الزواج او إنتهاء العلاقة .. ولكن علاقتى بعادل ليس بها نهاية فهى عبارة عن هروب مستمر .. هروب من علاقة لا أدرى الى أين ستؤول بى .. أو ربما هروباً من حاضر

يحلّم به عادل ويرسم مستقبله متفائلاً .. وهو لا يعلم من تكون حبيبته ؟ .. لا يعلم ما هو ماضيها ؟ ، ولا يعلم كيف عاشت أو ماذا عانت في حياتها ؟ .. لا يعلم سوى أنه عشق فتاة لم تكن فائقة الجمال ، ولكنها عنيدة .. لم تكن مثل باقى الفتيات اللواتى عرفهن .. عشق تفاصيلها دون أن يرى ما بداخلها ولكنه أراد فقط أن يكمل حياته معها ..

أعلم أن نهاية قصتى معه ستكون ممؤلمة .. وإن إختفائى المفاجئ عنه منذ شهرين كان كالصفعة التى لم يدوق مرارتها من قبل .. أتعذب أنا هنا ويتعذب هو بحثاً عنى فى كل مكان .. لقد مر شهرين على إختفائى المفاجئ عنه وهو مازال يبحث عنى ويسأل كل الأصدقاء .. ليتنى أستطيع أن أعود له ، ليتنى أستطيع أن أحتضنه وأعتذر عن إختفائى عنه ، ليتنى أستطيع أن أخبره كم أحببته وكم أتألم وأنا بعيدة عنه .. كان هروبى المتعمد ليس الا بحثاً عن سعادته هو ، فأنا أعلم جيداً بأنه لن يكون سعيداً مع فتاة بداخلها كل هذا الألم ..

أخرجتنى وفاء من شرودى وهى تسألنى :

- إنك تشاقين له كثيراً يا مريم ، لماذا لا تعودين له ؟

تعلمين أنه يبحث عنك فى كل مكان ، وتعلمين أيضاً ان من حقه أن يعلم أنك كاتبته المفضلة كما أخبرتنى ..

- صدقينى يا وفاء ، مازلت لا أعلم ماذا يجب أن افعل تجاهه، فكل ما فكرت به أن سعادته لن تكون معى ..

انه حتى لا يعرف أننى الكاتبة التى عشق كتاباتها وكان يحدثنى عنها ويتغزل بكل ما تكتبه ، وعن المشاعر التى تسيطر عليه وهو يقرأ حروفها .. فهو برغم قوة شخصيته إلا انه يصبح كالطفل عندما يتحدث معى ، ويفيض عشقاً لكاتبة لم يراها ، بل كل ما يعرفه عنها حرفان فقط من إسمها .. وهو لا يعرف إننا شخص واحد ..

تركنى الشاب ورحل .. وتساءلت .. هل أصبح ما بداخلى واضحاً للجميع ، أم أصبحت أعماقى عارية حتى بات الجميع يعرف ما تحويه من تفاصيل مؤلمة !

كنت أقوم بتدوين ما يجول بعقلى من أفكار كعادتى بعد ممارسة التأمل وأنا أنتظر حضور وفاء ..

.. لم أقابل وفاء ذلك اليوم ولكن كان القدر مخططاً لى خطة أخرى ، أن أقابل نيرمين .. التى وقفت بجوارى تقرأ ما أخفيه بين طيات أوراقى .. فتارة أكتب ذكرى مررت بها فى حياتى ، وتارة أخرى أكتب عن أشخاصاً من نسج خيالى ..

فاجأتنى نيرمين بضحكة عالية وسط المقهى وهى تقف بجوارى .. نظرت نحوها بذهول متسائلة .. من تكون تلك الفتاة التى تضحك بتلك الطريقة؟ ..

لم أتعرف عليها من الوهلة الأولى .. ولكنها لم تنتظرنى لأسألها من تكون .. فنظرت مباشرة لعينى بنظرة تحدى وكأن لعبتها الخاسرة معى فى ان تكسب حب سليم لها مازالت بذاكرتها .. ولكنها حاولت إخفاء نظرتها الحاقدة بإبتسامة حب مصطنعة ..

- امازلتِ لا تعرفين من أكون يا مريم ؟

- وبنظرة حادة أجبتها .. الحقيقة انى لا أعرفك .. من تكونين ؟

- أنا نيرمين ، كنت زميلتك بالجامعة .. خطيبة سليم

- نعم تذكرتك ، مرحباً بكِ .. حدثت نفسى " مازالت كعادتها ترتدى أغلى الثياب وأكثرها تحراً "

.. جلست مُسرعة دون أن أدعوها لمشاركتى الجلسة التى كنت أنوى أن اكون فيها بمفردى ..

كعادتها المتطفلة إلتقطت الأوراق المطوية على الطاولة وتصفحتها بإهتمام .. ربما كانت تبحث

عن شيئاً معيناً مكتوباً عنها او عن سليم .. ولكنها لم تجد سوى أشخاصاً لا تعرف عنهم شيئاً ..

القت الاوراق بلا إهتمام .. ثم بدأت الثرثرة كعادتها منذ ايام الجامعة عن اصدقاء الجامعة الذين

نادراً ما أعرف أحدهم ، وعن سفرها لبعض الدول التى تعانى من الفقر لتساعد الفقراء على حد

قولها .. ثم تابعت الحديث فى اللاشئ .. كنت أستمع لبعض أحاديثها ، والبعض الآخر كان

عقلى يشرد فى محاولة إيجاد طريقة لأتخلص منها سريعاً وأرحل .. ولكن كيف أتخلص منها ؟

.. هل أنهض واخبرها أنتى على موعد آخر ؟ ، أم أطلب منها أن تتركنى وترحل مباشرة ؟ ..

ثم سألتنى فجأة : هل تتواعدين أنتى وسليم ؟

كان ردى تلقائياً وسريعاً عليها بالنفى .. فأنا لم أهتم يوماً بعلاقتها مع سليم او حتى بمشاعره

نحوى .. بالأحرى لا تعينى المشاعر ، فأنا لا أعترف بالحب مطلقاً ..

إبتسمت براحة وكأن جبلاً قد هُدم من فوق قلبها .. وفاجأتنى قائلة : هل فكرت يوماً بنشر ما

تكتبه هذا ؟

صمتت طويلاً وأنا أفكر .. هل يجوز أن تكون كتاباتي تلك مصدراً لإعجاب أحداً ما ؟ .

- لا تفكرين كثيراً يا مريم ، فأنا سوف أساعدك فى نشرها .

ردت بإضطراب شديد .. لا أنوى على ذلك ، فأنا أكتب لنفسى فقط ولم أفكر فى ذلك مطلقاً ..

- إذآ فليحدد ذلك السيد رياض مدير دور النشر .. ما إذا كانت مؤلفاتك تصلح للنشر أم لا ؟

صمتت .. ولم يكن صمتى موافقة بل كانت الحيرة تسيطر على كيانى كله ، فعجزت عن الرد

سريعاً عليها هل أصمم على الرفض أم أوافق ؟ .. ولكنى أمام القدر كعادتى كنت مسلوبة

الإرادة وأعلم انه لن يفيدنى القبول أو الرفض ، فما سوف يقرره قدرى سوف يكون كالعادة ..

كانت مقابلتنا الثانية مخطأً لها من نيرمين ، وليست صدفة تلك المرة .. فكانت دعوتها لى

على حفل ميلادها هى المرة الثانية للقائنا ، وكانت تخطط أن اقابل السيد رياض فى الحفل

وكانها مجرد صدفة .. إعتقدت بأن خسارتها السابقة لحبيبها سليم قد طويت فى الذكريات البالية

للجامعة .. ولكنى كنت مخطئة ، فهى لم تخطط لمساعدتى ، بل كانت تخطط أن تكسب جولة

ثانية من اللعبة ، وتعوض خسارتها السابقة أمامى .. فإبتعاد سليم عنها وإختيار حبيبة أخرى

غيرها كانت خسارة فادحة لم تتعود عليها ..

ذهبت لمنزلها وأنا أحاول أن أخفى القلق الواضح على ملامح وجهى ، فأنا لم أعتاد على أجواء

الحفلات ... كان منزلها الشاسع ممتلئاً بالتحف الغالية وبالضيوف ايضاً .. وبمقارنة ملابسى

للمكان فقد كانت رسمية ، فأنا كنت على موعد مع رئيس دار نشر كما أخبرتنى نيرمين وكان

مناسباً أن ارتدى تلك الملابس كما ظننت .. بينما الحاضرون فتشعرونى ملابسهم المتحررة بأنهم

لا ينتمون لتلك البلد التي تتنفس بالعادات الشرقية ولا يعترفون بها .. ومراسم احتفالاتهم كانت وكأنها فقط للمتعة الجسدية ..

حاولت أن أجد مكاناً بعيداً عن تلك الاجواء التي لا تناسب عاداتي ، أنتظر السيد رياض أملاً أن ينتهي لقائنا سريعاً وأهرب من المكان .. الا أن الوقت كان يمضى ببطأ ، وبين الحين والآخر كانت تحاول نيرمين أن تطلب منى الإنخراط فى حفلها مع رجالاً لا يتسمون بصفة واحدة من صفات الرجولة .. ولكنى لم أنتظر كثيراً ، فسارعت بالهروب من المكان ..

عدت للمنزل وانا أحاول أن أفهم لماذا طلبت منى نيرمين حضور هذا الحفل ولكنها سرعان ما دبرت لى لقاء آخر مع السيد رياض.. لقد كانت نظرتة لى توحى بأنه يعلم جيداً بأن ما سيقراه من مؤلفاتى اشبه بورقة فارغة ، مقررراً بداخله أن ينظر لها سريعاً ويلقيها خلفه ، ثم يمنحنى أملاً كاذباً بأن كل شئ سيكون على ما يرام فى محاولات أخرى قادمة ..

أنا مثله تماماً كنت أعتقد أن ما أكتبه لا يستحق القراءة .. وأن كل ما أتوقعه هو فقط ما يحدث دائماً ، فوضعت بين إيديه ما كتبته .. ولكنى وجدته ينغمس فى قراءة مؤلفاتى .. حتى مرت ساعة وهو يقرأ الأوراق بتدقيق شديد ، وبرغم نظرات الإعجاب التي بدت على وجهه الا أنه جعلنى أشعر بقلقاً شديداً من ان تكون النهاية هى طرده لى الى الأبد من داخل مكتبه .. الا أن القدر وللمرة الأولى أراد أن يخلف ظنونى وأن يبقينى على قيد الحياة بلا ألم .. تلك المرة كانت السعادة هى بداية طريقي .. إنقطت أنفاسى بصعوبة وأنا أسمع حديثه عنى..

- لم أكن متأكداً من أن حديث نرمين عنك سيكون حقيقياً فقد أخبرتتى بأنك تكتبين ببراعة .. وأنا لى الآن رغبه فى قراءة أعمالاً أخرى كاملة لك .. صمت قليلاً ثم سألتى ..

- لماذا لا توجد نهاية واضحة لكل كتاباتك ! .. فقد لاحظت ان لجميعهم نهايات متروكة لخيال

القارئ .. واستطرد مازحاً ، هل تكرهين النهايات ؟

- إننى لم أعتاد على وضع النهايات فى حياتى سيدى ولذلك يصعب على كتابة نهاية لأبطال

تلك الروايات .

- إن من إعتاد على ان يسيره الآخرون ، فأجدر به أن يضع هو نهايات لما يكتبه ، حتى وان

كان هذا يرضيه ولو بقليل من القوة .

- كيف تمنحني النهايات القوة التى سُلبت منى منذ زمن بعيد يا سيدى ؟ .. بل أيضاً قد سُلبت

منى النهايات والقوة فى آن واحد .!

- ربما اليوم هو البداية التى ستمنحك القدرة على وضع النهايات التى ترغبين بها .. ما رأيك أن

نبدأ اليوم ؟

نظرت له مبتسمة إبتسامة ممتزجة باليأس .. ربما تشعر يوماً بالندم من مساعدتك لفتاة لا تملك

حتى القوة التى تكتب بها نهايات لرواياتها ..

إبتسم واثقاً ، سأدعمك بالقوة التى تحتاجينها .. أما أنتِ فسوف تمنحيني نجاحاً ساحقاً بما سوف

تكتبيه .. فنحن متفقون حتى لو اختلفت مواقفنا فى حياة بعضنا البعض ..

كانت كلماته أشبه بعضناً أبويّاً لطالما إحتجت له .. فقد أراد نجاحاً لكلينا بلا تردد .. وجعلنى

أشعر بالطمأنينة نحو النهايات ..

أتذكر أننى عندما كنت أكتب رواية و أصل لنهايتها كانت ترتعش يدي ، ينتابنى شعوراً بالخوف ، لا أعلم إذا كانت نهاية الرواية أم هى نهايتى أنا .. فأنا إبنة رجلاً علمنى أنه فقط من يملك كتابة النهايات لكل شئ .. وليس لى حقاً فى أن أفكر فى ان أضعها بنفسى ..

وكلما حاولت أن أجد طريقاً أسير من خلاله نحو الأمل .. كنت أتعثر دائماً بذكرياتى التى آمنت بأنه سيأتى يوماً ويمنحنى القدر فرصة حتى أتحدث عنها بطريقة ما .. أحاول أن أمحو من داخلى ذلك العقاب الذى عوقبت به دون أن أقترف خطأ واحداً .. ربما يكون خطأى الوحيد هو إنتمائى لعائلة ريفية متشددة الأفكار .. لها قوانين خاصة تحكمها بعيداً عن قوانين البشر .. لا تؤمن بالحرية ، ولا تعترف بكبرياء المرأة .. أو ربما لأننى أنتمى لأب لا يسمو لمرحلة الأبوة التى تُجبره على الإعتراف بأنه يجب عليه أن يشارك إبنته أنفاسه .. وأن يُجاهد فى وأد عُقدته التى تحاول الإقتصاص منى ، ولكنه لم يبذل أدنى جهداً فى ذلك .. بل كان عقلى يذوب مع تلك الذكريات ويعود حيث القرية التى ولد فيها أبى حامد وتزوج من أمى ليلى ..

لم يكن حامد من أبناء المدينة ولم يتعرع فيها ليتعلم قوانينها المتحررة وينشأ عليها مثلما يعيش أهلها .. بينما هو ولد فى

" قرية الصناديدى " إحدى القرى الريفية الواقعة على أطراف الدلتا .. لم يتربى حامد على الحرية ، بل على القمع تحت سيطرة أمه سيدة القرية " نواهل " تلك المرأة التى بلغت الستين من عمرها ولكنها تمتلك قوة شابة ثلاثينية .. تمتلك فطنة حادة جعلتها تحكم القرية بأكملها دون خوف من رقيب ولا حسيب .. يؤخذ برأيها فى تشريع القوانين الخاصة بالقرية .. وأوامرها يجب على الجميع إطاعتها مهما كلف الأمر .. لكن تلك القوانين لم تُطبق على ابنها المدلل " حامد " ذلك الشاب الوسيم الذى تتمنى الزواج منه جميع فتيات القرية .. بينما هو إختار أن يكمل مسيرته الجامعية فى جامعة القاهرة ، والفرار من القرية الصارمة .. لم يلبث أن يطلب من أمه السفر ، فقد وافقت سريعاً على طلبه لتحقيق من خلاله حلماً يراودها منذ توليها إدارة شؤون القرية .. فكان حامد بالنسبة لها الابن الذى سيكمل تعليمه ويكمل أمبراطوريتها داخل القرية .. فجميع أبنائها لم يكمل أحداً منهم تعليمه .. هكذا كانت تحلم " نواهل " .. لكن حامد تمرد على تلك الأحلام وتلك القوانين منذ وصوله الى القاهرة .. فقد كان يقضى وقته بين أشخاصاً مختلفون فى الأفكار والانتماءات عنه .. يعيشون بحرية ويتمتعون بالحياة كأنهم سيعيشون أبداً .. راقت لحامد تلك الحياة .. فهو إعتاد أن يعيش حياة باهتة داخل القرية ..

فقرر حامد أن يتمرد على رغبات نواهل وأحلامها فيه .. وأن يتخلص من جذوره .. ولكن الأمر لم يكن سهلاً .. كان كمن يحاول الخروج من عنق زجاجة وضعت بها أمه .. يتلخص ما يفكر به فى أن يفعل عكس عاداته التى تربى عليها .. فيكون أقصى ما يمكنه فعله هو أن يختار زوجة لا تنتمى لقريته ، متحررة لا تؤمن بأفكار الريفين القديمة ، زوجة لم تتعود على إرتداء ثياباً

تخفى جمالها مثل فتيات القرية اللواتى يرتدين ملابس سوداء فضفاضة ليخفين زينتهن ، بل كانت ليلي تنتقى أغلى الثياب وأكثرها تحرراً .. هكذا تربت ونشأت (ليلي) إبنة المدينة .. فهى جزءاً من إحدى العائلات التى تُربى بناتها على الحرية حتى وإن كانت خاطئة من وجهة نظر الآخرين .. عائلات تُدلل بناتها وتغرس فيهن أفكار خاصة بهم .. إعتقد (حامد) بأن زواجه من فتاة متحررة وجميلة مثل ليلي سوف يخلصه من عقده التى بثها زملائه بالجامعة فى عقله .. إنه ريفياً ، ولا يحق له الزواج سوى من امرأة ريفية مثله .. وان الريفيون هم أكثر رجعية عن غيرهم من البشر .. كلماتهم التى كانت تخترق سمعه مُحدثة بداخله ضجيجاً جعله يثور على الريفيين .. أصبحت كلماتهم بالنسبة له وكأنها سبّة .. أو مُعضلة يجب عليه أن يجد لها حلاً .. حاول أن يتخلص من تلك العقدة ظاهرياً أمام المجتمع المتمدن ، ولكنه لم يتخلص من أفكار الريفيين التى حُفرت بداخله وأصبحت جزءاً من كيانه .. أراد أن ينزع عن جسده جلباب الريف الملون بجهل ورجعية الريفيون .. فكان قرار زواجه من ليلي إنصافاً لخياله .. إعتقداً منه بأنها ستكون طوق النجاة الذى سيحرره من عقده ، وسيخلق منه رجلاً آخر قادراً على مواجهة مجتمع لا ينتمى له .. ولكنه لم يصمد طويلاً أمام عادات لم يؤمن بها .. ومعتقدات لم يسمع عنها يوماً .. وشعور بالهزيمة أمام عائلته التى لم تُرحب بفتاة المدينة .. أصبح مُحطماً بين عقده وبين عائلته .. يحاول أن ينجو من إعصار الأفكار الذى إجتاح عقله ، لا يعلم إذا كان عليه أن يعود ريفياً كما كان ، أم يتحرر ويصبح من رجال المدينة ! .. ضاع بين أفكاره وسلبيته التى لم يجرؤ أن يتخطاها بداخله ، ولم يجد طريقاً سلساً يمر من خلاله نحو الخلاص من كلمات عائلته القاسية وإتهامهم له بأنه خرج من جلباب التدين وأصبح لم يعرف طريق الله .. فكان يتوسل لأمه بأن توافق على زواجه من ليلي ..

- أنا لن أتزوج فتاة من فتيات القرية يا أمى .. فأنا رجل أتم تعليمه على عكس شباب القرية الذين إختاروا أن يتعلموا الزراعة والصناعة .. وفتيات القرية ولا واحدة منهن أكملت المرحلة الابتدائية .. بينما لىلى فقد أكملت تعليمها الجامعى مثلى تماما .. لقد إختارها عقلى وليس قلبى .

- ردت بغضب شديد : ولكنى عندما وافقت على إتمام تعليمك ، كنت أنوى أن تتزوج من إحدى الفتيات بالقرية وتكون عوناً لأخواتك بعقلك .. وتكون لهم المدبر لشؤونهم التى تحتاج لفهم .. واليوم أنت تريد أن تبعد عنى وعن قريتك !

- ولكنى حسمت أمرى يا أمى سوف أتزوج من لىلى وأعود بها الى القرية بعد زواجنا .

- لتكن مشيئة الله .. ولكن عليك أن تعلم يا ولدى بأننا لن نتقبل زوجتك واحدة من عائلتنا .. ويوماً ما ستعود الينا وحيداً ، وربما حينها لن نتقبلك أنت أيضاً واحداً من العائلة ..

تزوج حامد من لىلى سريعاً وكأنه يحاول أن يتحرر من قيوده الفكرية سريعاً .. يريد أن يثبت لأصدقائه بأنه ليس رجلاً ريفياً قديم الطراز .. لكنه رجلاً إستطاع أن يتزوج من فتاة المدينة الجميلة .. وبعد إنتهاء عامه الأخير من الجامعة .. قرر أن يعود الى القرية مصطحباً معه لىلى .. كان قراره تنفيذاً لوعده لأمه بأنه سيعود مع زوجته .. ولكنه كان يستسلم للعودة الى ماضيه .. الى طفولته التى تتمثل فى عائلته وقريته التى إعتقد بأن عناية الله تباركها ، وأن محاولته للإبتعاد عنها هو فساد أخلاقه التى تربي عليها .. وان الحق هو فقط الكلمة التى تقولها سيده القري " مناهل " ، والتى بذلت جهداً ضارياً فى زرع أفكارها بداخله ، وأن لها الكلمة الأقوى فى تسيير خطوات أبناءها .. هكذا كانت تسيير الأمور فى تلك القرية البعيدة عن المدينة .. وهكذا تأكد حامد بأن التخلى عن لىلى وعودته للقرية هى الخلاص من الصراع الذى كاد يقتله .. لكنه لم يعود

لقريته وعائلته بمفرده مُتحصناً بأفكاره التي أصبحت شبه متحررة ، بل قرر أن يخلق من ليلي المتحررة ، "ليلى جديدة" يجب عليها أن تتعود على حياة القرية ، وأن تعتق أفكارهم حتى لو كانت عكس ما عاشته طوال حياتها .. كان حديثهما كحرب يريد كل طرف من أطراف المتحاربين فيها أن يفرض أفكاره ومعتقداته على الآخر .. حينها بات الإختلاف بينهما واضحاً .. فرجل القرية لن يقبل بأن تفرض عليه زوجته رأيها ..

- إننى لم أتعود على الحياة الريفية يا حامد ، فلماذا ترغمنى على السفر معك ؟ .. لقد أخبرتك مراراً بأننى لن أسافر معك الى هناك .. إذهب اليهم بمفردك وعندما ستعود سأكون فى إنتظارك فى بيت والدتى .

- ولكننى وعدت أمى بأن تسافرين معى بعد زواجنا .

- لم تخبرنى بذلك مسبقاً ، بل علمت بذلك بعد زواجنا ، فتحمل وحدك نتيجة إخفاء ذلك عنى

- ولكنك أصبحت زوجتى ومن حقى أن تتضمن لى فى كل مكان .

- لو أخبرتنى عن نواياك مسبقاً ، لما وافقت على الزواج منك .

كانت الحرب بينهما على أشدها .. حين قررت ليلي بأن ترفض السفر مع حامد لقريته .. أقنعها والدها بأن الفتاة الحرة هى من تعلمت بأن تكون حرة بكل مكان ولكن بجوار زوجها أينما يذهب ، وليس عكس طريقه .. فهى قادرة على أن تكون حرة فى أى بلد .. قررت ليلي الخضوع لرغبة والدها وموافقته على سفرها مع حامد .. معللاً بأن المرأة يجب أن تكون مع زوجها فى كل وقت ، محاولاً التخفيف عليها من وطأة خوفها من السفر للقرية ..

سارت ليلى فى شوارع القرية ببطئ وهى ترتدى فستان قصير يكاد يصل الى ركبتها .. تتطلع الى شوارع القرية فى حذر شديد وصولاً الى منزل " مناهل " .. ويقف فى جانبى الطريق ثلاثة نساء من نساء القرية اللواتى يرتدين ثياب محتشمة وفضفاضة .. يختلسن النظر بين الفينة والأخرى نحو ليلى .. يتلمزن عليها بين بعضهن البعض ..

السيدة الأولى : هل هذه زوجة حامد الذى رفض الزواج من بناتنا من أجلها ؟

السيدة الثانية : إنها جميلة

السيدة الثالثة ترد بإمتعاض : لقد إستطاعت سيدة القرية فرض قوانينها الخاصة المتشددة على جميع أهل القرية صغيراً وكبيراً ، ولم يستطيع أحد مجابها يوماً ، فيما عدا ولدها حامد فهو الوحيد الذى تحرر من قيودها

إبتسمت السيدة الأولى بسخرية قائلة :

وما أدراك بأنه لن يعود أدرجه تحت سيطرتها ؟ .. إنها " مناهل " وجميعنا نعلم بأنها لن تترك زوجها وشأنها .

وصلت ليلى الى منزل سيدة القرية وكبيرتها .. لم يكن إستقبال عائلة حامد لزوجته كما توقعته ليلى .. فكانت تتخيل بانهم سيفخرون بزوجة إبنهم المتعلمة الفائقة الجمال .. بينما كان إستقبالهم شاحباً .. بينما إستقبلتها سيدة القرية بإبتسامة حانقة .. حاولت ليلى أن تتقرب منها ولكنها رفضت أن تلمسها حتى طرف جلبابها .. علمت ليلى منذ الثوانى الأولى لوجودها فى القرية بأن مصيرها لن يكون سعيداً .. نظرت نواهل الى ليلى بسخط ثم نحو حامد قائلة :

- إصطحب زوجتك يا حامد لغرفتها ، وعود مرة أخرى الى هنا لأتحدث إليك ..

- عاد حامد متوجساً متسائلاً : هل ضايثك أمر ما من ليلي يا أمى ؟

- ردت مقتضبة : عندما تزوجت من خارج المدينة كان يجب أن أعلم بأنك تتصلت من عاداتنا

.. واليوم أنت عدت الى القرية مرة أخرى بإرادتك ، فيجب عليك أن تعود لإعتناق عاداتنا مرة

أخرى .. وأن تخبر زوجتك بأن ما ترتديه من ملابس لا يناسب أخلاق قريتنا .

- إن حديثك صحيحاً يا أمى ، سوف أخبرها بما تريدن ، وعليها طاعة أوامرك .

شعرت نواهل بأن ولدها عاد إليها مرة أخرى ، وإنه سيتخلى عن ما إعتقه من أفكار فى المدينة

.. أما ليلي فكان يجب عليها أن تعيش حياة بدائية فى قرية ينظر لها فيها جميع سكانها على

إنها مجرد فتاة متحررة تزوجها حامد ابن قريتهم .. إنهم يعرفونها "بفتاة المدينة" التى تفتقر الى

دينها وتعاليمه وقدسيته ، فتصبح المرأة جسداً يرغب الرجال فى تقطيعه والتمتع به ، قرية تُجبر

فيها النساء على إرتداء ملابس سوداء إعتقاداً من رجالهم أنها ستراً لهن .. وليس لهن الحق أن

يعترضن ..

أجبرت ليلي على أن تعيش فى بيت يقوم على السمع والطاعة وتحكمه سيدة واحدة فقط بعد

رحيل والد حامد وهى " الأم " او كما يسميها أهل القرية " سيدة القرية " .. عندما وصلت ليلي

الى تلك القرية شاهدت كل شئ مختلف عن حياتها .. النساء يرتدين ثياباً تغطى جميع أجسادهن

، لا بيتسمن خارج منازلهن الا لأزواجهن فقط .. لم تسمع أصواتهن الا فى حفلات الزفاف التى

يجتمع فيهن النساء فقط ، اما الرجال فلهم مجالس خاصة بهم فى مكان يبعد كثيراً عن مجالس

النساء .. شعرت ليلي سريعاً بأنها لا تنتمى لهذا البيت الكبير .. ولا تنتمى لعائلته الذين يتعاملون

مع المرأة على إنها هامش يجب عليها السمع والطاعة .. كانت مختلفة الأفكار عنهن .. فهي تدرك بأن المرأة ليست قطعة أثرية يجب ان تدفن في قبو طوال حياتها خوفاً عليها من السرقة .. فهي تؤمن بأن المرأة خلقت لتكون حرة .. لم تتحمل ان تكون صيداً لنظرات رجالاً يدعون الفضيلة جهراً ، ويقتنصون من جسدها بأعينهم سراً .. قررت ان تتمرد على زواجاً لم يحميها من أسنة عائلته القاسية ، وأعينهم التي تتهمها بالكفر لمجرد إمتناعها عن طاعتهم ، وإرتداء الملابس التي ترتديها نسائهم ..

كان قدر ليلى الأول أن تُرزق بمولودتها "مريم" .. تلك كانت الخية الأولى التي تعرض لها حامد في زواجه من ليلى .. فهي لم تنجب ولداً يحمل إسمه وأجداده .. بل أنجبت له فتاة ستصبح كباقي فتيات القرية .. أصبح يتجاهلها وكأنها فرضت عليه إبنته مريم .. ولكنها تعرفت على الوجه الخفي لسيدة القرية ، حين إجتمع مجلس العائلة لتنفيذ ما قرره " سيدة القرية " وهو التجهيز لعرس واحدة من نساء العائلة .. تلك المرأة التي توفى زوجها وقررت أن تربي ابنائها بمفردها ، ولكن في أعرافهم لا يجوز لإمرأة أن تعيش بمفردها دون زوج .. وقرارها بأن ترفض الزواج من شخص آخر بعد وفاة زوجها هو بمثابة التصل من عادات القرية ، فلا يجوز أن ترفض الزواج .. فكان يجب أن يجبروها على الزواج من رجل لا تعرفه ولا يعرفه ابنائها .. ولكن مجلس العائلة كان قرارهم حاسماً .. فباتت كلمة سيدة القرية حاسمة .. لم تستطيع تلك العروس

ان تثور على تلك العادات .. ولا مفر من قبول هذا الزوج الغريب .. فى يوم العرس إجتماع نساء العائلة فى منزل العروس ، ولكن كان المنزل يخلو من مظاهر الإحتفال .. وكأنه اشبه بجنائز، ينظرن النساء للعروس وكأنهن يشفقن عليها من مصير لا يرغبن أن يقعن فيه .. فكلاً منهن تعيش قهراً فى بيتها مع رجلاً يعاملها كالسبايا .. تنتظر لهن العروس وكأنه اليوم الأخير لها فى الحياة .. تشعر وكأن شيئاً ما يتربق إنصراف النساء لينقض عليها ويفتك بها .. غادرن النساء وظلت العروس وحيدة .. جلست معها ليلى تواسيها وتحثها على رفض الزواج بكل ما تملكه من قوة ، أن تثور على الظلم ..

- كان يجب أن ترفضى هذا الزواج الإجبارى يا عزيزى .. لماذا لا تثورين على تلك العادات القديمة ؟

- ردت العروس بيأس شديد وإنهزامية : هل شاهدتى كل هؤلاء النساء اللواتى غادرن منذ قليل ؟ .. كلهن يتألمن فى صمت مثلى تماماً ، ولم تستطيع إحداهن أن تتمرد على تلك العادات .. فمن حاولت أن تتمرد فمصيبرها الرجم .. او القتل .. فتلك القرية لا تحب النساء وتعتبرهن خادמות فقط لرجالهن

- ردت ليلى بدهشة شديدة : وكيف ذلك وكلكن إبناء وأخوات وأمهات لهؤلاء الرجال !؟

- المرأة كما هى حتى وإن تغير لقبها إن كانت أم أو أخت أو إبنة أو زوجة .. فالرجال هنا فى تلك القرية قوامون على نساءها بالتعنيف والرجم .. ما عدا سيدة القرية " نواهل " فهى المرأة الوحيدة بالقرية التى تعامل بإحترام ، لأنها تملك الحق فى تشريع القوانين بالقرية .

- شردت ليلي تفكر فى سيدة القرية .. ماذا ستفعل معها ؟ .. هل سيكون مصيرها فى تلك القرية أسوأ مما توقعت ؟

- ولكن يجب عليك أن تحاولى مرة أخرى .. أو تحدثى مع زوجك وتطلبين منه باللين أن يحرك من هذا الزواج ، ربما يتفهم ما تعانیه أو أن يكون حصناً لك من ظلم أهل القرية .

- إنه مثل كل رجال القرية ترعرع هنا وتغذى على تلك العادات ..

لم تلبث أن تنهى حديثها مع العروس ، حتى دخل الزوج صارخاً فى وجه ليلي ، يحثها على الرحيل ليجتمع بعروسه .. لم تكن العروس تعلم بأن زوجها سيكون هو الظلم الأكبر الذى سيحطمها الى الأبد .. سيكون ظلمه لها اكبر واقسى من ظلم عائلتها .. فحين تتزوج المرأة من رجل غير زوجها ولا سيما ان يكون قلبها ممتلئ بحب فقيدتها الى الأبد ، فتعيش مع الزوج الجديد جسداً بلا روح .. لم تدرك للوهلة الأولى بأن الزوج يعانى من اضطراب نفسى .. يتلذذ بتعذيبها .. حين عانقها بلطف بعد دقائق من رحيل الجميع .. شعرت بإرتياح ممزوجاً بترقب من مجهول .. ولكنه لم يعانقها طويلاً .. همس لها " لن تنالى السعادة بعد الآن ولن تمتلكين فرصة للبوح بآلمك يوماً .. نظرت له متعجبة وهى تنتفض خوفاً من حديثه .. أغلق جميع الأبواب والأضواء وجردها من ملابسها سريعاً وأصبح كالمجنون يجلدها دون رحمة .. يضحك بشدة حين تصرخ ويزيدها تعذيباً حين يغشى عليها من الألم .. كانت ليلة عرسها ملونة باللون الأسود .. حين حضرت العائلة لبيتها فى صباح اليوم التالى لم يفاجئهم جسدها المشوه ، بل كان ذلك عادياً لهم .. لكن ليلي شعرت بالخوف من أن يكون مصيرها مشابه لمصير العروس .. نهضت ثائرة على الظلم .. لم تنال بما ستفعله العائلة بها .. أمسكت بيد العروس وحاولت الهروب من المنزل أمام

الجميع .. لم تمنعها اصوات العائلة الراضة لما تفعله .. سارت فى طريقها نحو الباب لتحرر نفسها وتحرر تلك العروس معها .. الا أنها تفاجأت بزواج العروس ينهرها أمام حامد .. ولكنها لم تتوانى عن هدفها .. امسكت يده بقوة لتمنعه من ضربها وهى تنتظر نحو حامد ليساعدها .. لكنها لم تدرك بأن حامد مجرد جزء صغير من حلقة متكاملة من أفراد العائلة .. فهم كخيوط العنكبوت لا يفصلهم الا فريسة تقع بين براثنهم .. لم يحاول حامد أن ينجيها من براثن ذلك الوحش ، بل قام بجلدها معه حتى لا تغضب منه سيدة القرية .. هذا اليوم الذى دبرته الأقدرا لتتير بصيرة لىلى على ما ستعانيه فى تلك القرية .. سارت لمنزلها صامته يائسة .. شعرت بأن وجودها فى تلك القرية بعد ما حدث من زوجها سيكون عاراً ستعيش موصومة به ومتألمة مدى الحياة .. قررت الرحيل عن تلك القرية وعن حامد للمرة الأولى .. ولكن طلبها لم يوافق عليه بتلك السهولة ، فقد قررت سيدة القرية قرراً لم تكن تعلم به لىلى .. أن تظل لىلى مسجونة فى منزل يبعد عشرات الأميال عن القرية .. ذلك العقاب الذى تستحقه لىلى فى قوانينهم .. فقد إقترفت إثماً فى حق العائلة .. وتمردت على قوانينهم .. لم يكن قرارهم عقاباً لها بقدر ما كان خوفاً من أن يتبع خطاها نساء القرية ويثورن على ظلم رجالهن .. ولكن لىلى لم تقبل بذلك العقاب .. لن تقبل أن تُدفن وهى على قيد الحياة ..

فقررت أن تعود للمدينة حيث الحرية التى نشأت عليها ؛ تاركة خلفها زوجها الذى تخلى عنها بل إنه أصبح عدواً لها عندما حاول رجال العائلة تعنيفها أمام عينيه وإتهامها بالفجور والعصيان لزوجها .. فهم مؤمنون بأن الزوجة يجب أن تسير وفقاً لقوانين عائلة زوجها ، تعتنق شريعتهم الخاصة ، وتؤمن بأفكارهم .. وأن يجب عليهم ضربها وتربيتها من جديد إن لزم الأمر ..

حزمت أمتعتها إستعداداً للعودة الى المدينة .. ولكنها لم تجد وسيلة تساعدنا على الرحيل من تلك القرية .. ذهبت لتتوسل الى حامد لعله يكون رحيماً بطفلتها ويتركهما يرحلان بسلام ، ولكنه لم يتوانى عن إذلالها للمرة الثانية ليَرْضَى عائلته .. نظر لها متحدياً كبريائها وشموخها رافضاً رحيلها ..

- أتركنى أرحل فى هدوء يا حامد ، فلم يبقى بيننا من الحب ما يجبرنى على البقاء معك وعائلتك .. فقد أدركت أن مشاعرى نحوك قد جفت .. ولم يبقى بيننا سوى رضيعتنا التى كتبت بإسمك .

- رد بتهكم قائلاً : لن تتركين القرية الا بموافقة " سيدة القرية " .

- نظرت له نظرة حزن ممتزجة بياس .. هل أحببتى يوماً يا حامد ؟

- أجل ، ولكننى أحب عائلتى أكثر منك .

- ولماذا تزوجت بى وأنت مازلت متعلقاً بعائلة لن تتقبل إمراً مثلى ؟

صمت ثم رد متلعثماً وكأنه يبحث عن مبرر لما يفعله معها .. لم أكن أعلم بأنك لن تصبى واحدة من نساء هذه القرية يوماً .. فقد حاولت مراراً أن أساعدك على الإنخراط بالعائلة وتعلم قوانينها ، ولكنك دوماً تصممى على الرفض للأنصياح تلك القوانين .. حتى أنك لم تبدلين جهداً فى إرضاء سيدة القرية .. وأيضاً لم تتجيبين لى ولدأ يكون سنداً لى فى الحياة .

ردت ثائرة ساخطة على حديثه :

وهل أنجبت مريم وحدى ؟ ، أو أنا من خلقتها ؟ هذه إرادة الله وحده كيف تعترض على إرادته هكذا ! .. إنك تعلم جيداً بأنك تتقوه بما لا يرضى الله لترضى هؤلاء الظالمين ، فلما لا تتذكر

أنك ستقابل إله عظيم يوماً ما وتخبرهم بأنك جبان .. إن رجلاً مثلك لم تعلمه سيدة القرية المعنى الحقيقي للرجولة .

صفتها جدتي دون إنذار .. ثم كبلتها سريعاً كخروف ينتظر الذبح .. وطلبت من رجال العائلة أن يلقوا بها داخل غرفة صغيرة تقع على أطراف القرية ..

إستيقظت ليلي من سبات طويل من أثر الضرب الذي تلقتة من نواهل .. وفتحت جفنيها لتجد نفسها وحيدة بغرفة صغيرة مظلمة ، يكاد يصل إليها شعاع خافت من نافذة صغيرة فى أعلى الحائط .. لم يكن ثمة علامة لوجود أشخاص .. سوى أصوات متقطعة تتراعى اليها بين الفينة والأخرى لأشخاص خارج الغرفة ، يبدو انها تفصلها عنهم مسافة طويلة بعيدة عن غرفتها .. مضت تتلمس الطريق وهى تكاد تستطيع السير .. حتى وصلت الى الباب ، صاحت بأعلى ما تمتلكه من قوة لتطلب المساعدة .. لكن صياحها بات بدون جدوى .. فعادت لتجلس مكانها بيأس وإستسلام .. فى إنتظار فرجاً قريباً .. أو أن يحدث الله أمراً .. لم تلبث ليلي طويلاً فى ظلمة غرفتها ، حتى داهم غرفتها شيخاً خمسينياً دمث الوجه .. يرتدى جلباب أبيض مثل ما يرتدونه أهل القرية .. لم تكن ليلي تعرفه مسبقاً .. فإعتقدت بأنه فرداً من عائلة حامد قد داهمها ليبرحها ضرباً ، أو يقتلها ويتخلص منها للأبد .. فبدأت تتفوه بكلمات غير مفهومة وهى تحاول الإختباء خلف منضدة صغيرة بالغرفة .. إقترب منها الشيخ بهدوء و ربت على كتفها براحة .. ولكن ليلي لم تطمئن له خشية أن يؤذيها ..

- أتوسل إليك الا تؤذيني ، فأنا لم أكن أعلم شيئاً عن قوانين القرية ، فقد أخطأت فى حكم جميعاً .. لا تؤذيني .

- رد الشيخ مبتسماً بهدوء .. لا تخافى يا ابنتى ، فأنا أعلم ما تعانیه مع تلك العائلة .

- إطمأنت له ليلى ولكنها تراجعته خوفاً من أن يكون واحداً من عائلة نواهل .. ردت بتردد :
وكيف علمت بما أعانیه معهم ؟

- أنا والد المرأة التى ثورتى من أجلها .. المرأة التى رفضت الزواج بعد وفاة زوجها ولكن تلك العائلة أرغمتها على الزواج من رجل يعانى من مرض نفسى .. إنها أرسلتني إليك لأساعدك على الفرار من القرية ؟ .. هل ترغبين فى مساعدتى ؟

- ردت بلهفة ؛ كعطشان يلهث خلف الماء .. نعم .. نعم أحتاج أن أبتعد عن تلك القرية ..
ولكن كيف سنخرج من هنا بينما هناك رجالاً فى كل مكان حول الغرفة ؟

_ لا يوجد أحد بالخارج يا ابنتى ، ولكنهم وضعوا مفتاح الغرفة بالخارج ، لا أعلم لماذا وضعوه هكذا ؟ ولكن لا بأس .. هيا بنا لنخرج من هنا .

مضى الشيخ ممسكاً بيد ليلى فى ترقب حتى بلغ الى باب الغرفة وفتحه .. لتتلقاهما سيده القرية ويحاوطها بعض رجال العائلة وإبنها حامد .. ينظرون لهم فى صمت .. تراجع الشيخ وليلى بتوجس ..

أمرت سيده القرية أحد رجال العائلة بأن يصيح بقوة معلناً خيانة ليلى لزوجها مع ذلك الشيخ .. وأنهم شاهدوهما بالجرم المشهود سويًا .. صاح الشيخ وليلى فيهم بأن لا يفعلوا بهما هكذا .. ولكنهما لم يصيحا ويتوسلا طويلاً للسيدة نواهل .. فقد إنتشر الخبر كالنار فى الهشيم .. وبات أهل القرية يعلمون بما فعلته ليلى بزوجها .. فجمعت نواهل أهل القرية جميعاً لتوثق ما شاهده

رجالها وولدها على جريمة الزنا بين ليلي والشيخ .. وقفت بصلابة أمام الجميع معلنة بأن زوجة
إبنتها خانته مع ذلك الشيخ الذى يدعو الجميع الى الفضيلة بينما هو يمارس الفجور معها ..

- لقد كانت زوجة إبنى جزءاً من عائلتنا ، ولكنها تتصلت من التقاليد والعادات وحتى الأديان
السماوية .. وغدرت بزوجها وطفلتها ، ودنست عائلتها بخيانتها .. ولكن عائلتنا لن ترجمها كما
نفعل مع نساءنا لأنها لم تكن يوماً جزءاً من العائلة ولا حتى امرأة من سيدات القرية ، فلن تطبق
عليها قوانيننا ، بل سنتركها ترحل فى سلام وهذا من شيم الكبار ..

صاحت ليلي فى الجميع تدافع عن شرفها ولكن دون جدوى .. كان مصيرها محتوماً منذ وصولها
الى القرية ولكنها لم تكن تعلم بأن مصيرها سيكون أسوأ مما تعتقد .. إستعدت للرحيل من القرية
وهى تطالب بإبنتها ، ولكن الجميع وقف ضدها متجاهلين أمومتها ، ينهشونها بألسنتهم قاذفينها
بالخائنة ..

غادرت ليلي تلك القرية يائسة ، تحاول أن تلمم شتات روحها ، عادت للمدينة حيث الحرية التى
سلبها منها حامد وعائلته .. تركت كل ما كانت تملك فى حياتها لهم ، حاولت أن تأخذ معها
رضيعتها مريم معتقدة بأنها ستكون عوضاً لها عما إقترفه حامد وعائلته فى حقها ..

ولكن عائلة ريفية كتلك التى ينتمى لها حامد ليست كمن يتركون أطفالهم ليعرعرعوا بعيداً عنهم ،
مع امرأة خائنة إختارت أن تكفر بعباداتهم .. لم تربط بينهم وبين ميم عاطفة ليتمسكوا بها
ويسلبوها من ليلي ، ولكن أرادوا أن يحطموا ما بقى من ليلي .. فأعلنوا عليها حرباً لن يخسروها
مهما كلفهم الأمر .. إنهم لن يحتاجون ان يخرقا القوانين ليفوزوا بطفلتهم الرضيعة ، بل هم
يؤمنون بأن تلك الطفلة هى حقاً وملكاً لهم .. وإنها سوف تُربى بقوانينهم التى سوف تصنع منها

فتاة صالحة حسب معتقداتهم .. ولكنهم فى نظر لىلى يحاربونها بلا رحمة ، و حربهم لأمتلاك
الطفلة حرباً تقتقر الى العدل .. فإعتقاد لىلى بأن زوجها سوف يكون سنداً لها إن ساءت الأمور
، كان إعتقاداً خاطئاً ، وأن أحلامها أصبحت سراباً ..

فهو شاهداً على تعرض شرف زوجته للظلم أمام عينيه ، كان كافياً لها أن تشعر بقسوته وكرهها
له ..

تكاثلت عليها الظروف ، ووضعها القدر فى طريق لا نهاية لها سوى الألم ، فإختارت أن ترحل
من تلك القرية التى أجبرها الجميع فيها على ترك رضىعتها .. لم تأخذ معها شيئاً من أغراضها
سوى قطعة من ملابس طفلتها "مريم" لعل قدرها يجمع بينهما يوماً .. وتركت خلفها إرتاباً من
الذكريات التى ستعيش بها حتى تلتقى يوماً بمريم .. لم تكن تلك نهاية أقدار مريم بل بدايتها ..

لم يمكث حامد طويلاً فى القرية بعد رحيل لىلى .. فقد فارقتة الطمأنينة برحيلها .. يستنقظ لىلاً
وهو يأن من تلك الكوابيس التى تلاحقه منذ رحيلها .. لم يكن يعانى بصمت بل كان يخبر
صديقه سمير بكل ما حدث .. فهو صديق طفولته وكاتم أسرارهِ .. لم يعيش "سمير" فى القرية
طويلاً ، بل تمرد على قوانينها سريعاً ورحل مع عائلته الى المدينة ولكنه كان كثير التواصل مع
حامد وظلا أصدقاء حتى بعد أن غادر القرية ليعود للمدينة مرة أخرى .. لقد كان يعلم العم سمير
بأن حامد يعانى من صراغ داخلى بين ما تربي عليه فى القرية من عادات وبين ما يحاول أن
يعيشه فى المدينة من تحرر .. حاول أن يقدم له النصيحة مراراً فى أن يختار أن يعيش فى
القرية بعاداتها وبين المدينة بتحرر ساكنيها .. لكن حامد لم يستطيع أن يتخطى صراعاته
الداخلية وتوهم بأنه يمكن أن يجمع بين قوانين القرية وتحرر ابناء المدينة .. لقد كان مجبراً على

العمل بأحدى الشركات فى القاهرة ، فهو لا يجيد العمل بالزراعة كما يفعل أفراد عائلته فى القرية .. لم يكن ينتظر أن تبتسم له الحياة فى تلك المدينة ، بل كان يشعر بأنه قد فقد شيئاً كان يمتلكه وهى ليلى ، فهى كانت الإثبات الوحيد على أنه كاد أن ينجح فى الحصول على كل شئ يرغب فيه ، عاد الى القاهرة وترك والدته التى يتوارى خلف قوتها ونفوذها ..

كان عليه أن يأخذ معه ذكرياته مع ليلى التى شهدت عليها تلك القرية ، والعودة بها مرة أخرى للمدينة .. ولكنه حمل معه ايضاً حقيبه التى إمتلأت بملابس القرويين التى لا تناسب المدينة ، ومعه مريم التى زاغ بصرها تبحث فى كل مكان عن ليلى .. معتقدة بأنها ستجدها يوماً ما فى تلك المدينة الكبيرة لتخلصها من ذلك السجن الذى تركتها به ورحلت ..

ولكنها لم تكن تعلم بأن ما ينتظرها فى تلك المدينة سيكون أشد ظلاماً من ما مضى .. وأن والدتها التى كانت ترغب ان تجدها فى تلك المدينة ستكون الصورة التى ستلتصق بها طوال حياتها ، وأنها ستظل تدفع ثمن زواج ليلى من حامد ..

لم يتعذب حامد بعد رحيل ليلى عنه ، بل أيضاً بات يتذكرها بأنها خائنة أو "ربما يحاول إقناع عقله بذلك" ، خوفاً من أن يصب غضبه طويلاً على نفسه ويلومها مراراً .. لم يجد متنفساً لمرارة وحدته سوى أن يصب غضبه على مريم دوماً .. فهى نسخة من والدتها كما كان ينظر لها دائماً .. فكان يأسرهما بالمنزل طوال الوقت .. يحيطها بخوفه عليها من أن تسلك طريق ليلى مجدداً .. فلم تكن مريم تشعر بأنها طفلة كباقي الأطفال .. بل تحملت أن تدفع ثمن صراعات حامد الداخلية .. يصفها بشبيهة والدتها وبإنها ستكون متحررة مثلها وأنه كان يجب عليه وأدها بعد

رحيل والدتها .. فهي لن تكون جزءاً من عائلته يوماً ، إنهم يرفضون أن تكون جزء منهم لأنها
إبنة ليلي فقط ..

لم تكن تفكر مريم سوى في اللعب مع الأطفال ، ولكن حرم عليها الشعور بطفولتها .. فيجبرها
حامد أن تظل أسيرة في غرفتها دوماً لم تمتلك العديد من الألعاب مثل الأطفال بل كانت تلعب
بدمية واحدة إشتراها لها العم سمير .. فكلما أهتم بها العم سمير ، كلما شعرت بأنها تحتاج
لوالدها ، فتحاول مريم أن تتقرب منه .. فتنتهز وقت عودته من عمله لتركض نحوه لتحتضنه
، فيزجرها .. قائلاً :

إبتعدى " أنتى إبنة الشر " .. ليتها تركوها تأخذك معها حينما قررت الرحيل .. سأعيش موصوماً
بكما طوال حياتى .

تعود مريم لغرفتها تبكى دون أن تدرك ماذا إقترفت من ذنب ليعاملها والدها بكل تلك القسوة .. ثم
تخرج من غرفتها مرة أخرى .. تمشى على إستحياء ، لتحاول أن تتقرب منه مجدداً تستجدى
عطفه وإهتمامه بها ..

- ماذا فعلت معك يا أبى لتعاقبنى ؟ .. أخبرنى بذنبى وأنا سوف أصححه من أجلك حتى ترضى
عنى .

نظر لها حامد بشفقة للمرة الأولى .. ثم شعر بأن لا فائدة من إستعطافه لأنه لن يشعر نحوها
بعاطفة ثم رد بقسوة قائلاً :

- لا تقتربنى منى مجدداً فأنا لن أحبك يوماً .. أنا أكره الفتيات .. وأكره والدتك التى أنجبتك
وتركتك لى ورحلت

عادت مريم الى غرفتها وهي تبكى بصمت .. حملت دَميتها وتحدثت معها .. إنها صديقتها
الوحيدة .. فلا يوجد غيرها تبوح له بما يؤلمها ..

- إنه لن يحبني أبداً .. هل تعتقدين بأن والدتي تحبني ؟ .. أتمنى أن أجدها لتخبرني إذا كانت
تحبني أم لا .. أجل إنها بالتأكيد تحبني فأنا لم أغضبها يوماً .. ولكني أيضاً لم أغضب أبي يوماً
ولكنه لا يحبني .. إحتضنت دَميتها قائلة " لا بأس يا صغيرتي فنحن سوف نحب بعضنا بعضاً
."

اللوحة الرابعة

فى إحدى شوارع القاهرة الهادئة ، والتى يملؤها الخوف .. مكث جميع سكانها فى منازلهم بعد حدوث زلزال مفاجئ .. زلزال لم يحدث فى مصر مثله سابقاً .. زلزلاً أصاب القلوب رعباً .. وغمر العقول بالتساؤلات .. بعضهم يتساءل ، هل تلك هى نهاية العالم ؟ .. والآخرين يؤكدون أن هناك خطراً حقيقياً سوف يصيب مصر .. هو زلزلاً إستطاع هدم منازل مصر القديمة .. ولكنه لم يستطيع تغيير عقولاً سيكوباتية .. كانت الشوارع خاوية تماماً .. شوارع لن تسمع فيها سوى أصوات الحيوانات الضالة وهى تحاول إيجاد مكاناً آمناً او طعام .. لا يرغب أحد فى الخروج من منزله سوى لشراء إحتياجاته الضرورية من طعام .. بينما كانت "مريم" الطفلة ذات العشر سنوات ، تحاول التسلل خارج منزلها الذى كانت دائماً تراه شاسعاً برغم صغر مساحته .. وبارداً برغم إكتمال حوائطه .. أرادت ان تتسلل لتعذب مع بعض الأطفال الذين يتسللون يومياً أيضاً خارج منازلهم تاركين خلفهم خوف الأهل والجيران من حدوث زلزلاً آخر قد يتسبب فى هدم منازلهم ..

لم تبقى مريم وحيدة طويلاً مع دُميتها ، فقد زرعت محبتها فى قلوب جميع الجيران والأصدقاء .. يعاملونها كطفلتهم المدللة ، يعيشون النظر الى براءة وجهها .. إنها فى دواخلهم الإبنة التى يرغب الجميع ان يشبها اولادهم .. فقد كانت هادئة معظم الوقت ومطبعة ولكنها إذا تدتت فتحدث بلباقة وذكاء يفوق عمرها بسنوات .. تسالت مريم خارج منزلها كعادتها دون معرفة والدها .. تنتظر قدوم بعض الأطفال حتى يتشاركون طفولتهم البريئة باللعب فى هدوء خوفاً من

أن يسمع ضجيجهم أحداً .. إنتظرتهم طويلاً حتى شعرت بالملل ، ولكنها قررت أن لا تعود لمنزلها الذى تملؤه الرتابة خوفاً من أن يمنعها والدها من الخروج واللعب مع الأطفال مرة أخرى ، كما يفعل معها كل مرة ..

ولكن طفلة لم تكن ترغب سوى فى اللعب مع الأطفال ، وأن تنطلق نحو طفولتها ولا تبالى بأفكاره عنها ..

تسللت خارج المنزل رافضة الرجوع قبل أن تشبع رغبتها باللعب .. وكأن القدر يخبأ لها شيئاً لم تتوقع حدوثه ..

توجهت الى بيت جيرانهم بخطوات هادئة تبحث هناك عن اصداقائها .. سارت فى رواق المنزل الذى كانت إضاءته خافتة .. ولكنها لم تخاف من الظلام بقدر ما كانت تخاف العودة الى منزلها والوقوف أمام والدها .. سارت بخطوات طفلة لا تعرف سوى ان العالم صغير .. ربما أصغر من المنزل الذى تسكن به .. أرادت أن تسرق لحظة سعادة مع بقية الأطفال قبل أن تعود لتعنيف والدها لها .. ولكن قدرها كان له كلمة أخرى .. فقد أراد أن تجرب شيئاً آخر لا يقل ألماً عن التعنيف .. وصلت الى منتصف الرواق .. تفاجأت بشاباً عشرينياً من أبناء الجيران يمسك بها ليسألها عن باقى الأولاد .. لم تكن برائتها رادعاً له فى نواياه .. بل كانت حافزاً له لينقض على برائتها دون الخوف من المسؤولية ، لأنه يعلم بأن لا أحد سيعلم بما ينوى أن يفعله معها .. وأنها أكثر برائة من أن تبوح بشئ لأحد .. كان مخططاً أن يفتك بفريسة صغيرة لا تمتلك اى قدرة على فهم ما يرغب به ذلك الذئب .. وفى الظلام حاول تجريدها من ملابسها ليفترس جسدها بدون رحمة .. يغتصب برائتها ، ويتلذذ بجسدها الصغير ويشبع أمراضه المكبوتة .. لم تفهم ببرائة

الأطفال ما يحاول فعله ، ولكنها شعرت بأنه لا يجوز أن يفعل ذلك معها .. صاحت بصوتها الطفولى الذى لا يكاد يسمعه الجيران ، ولكن بدون أمل فى أن ينجدها أحد .. لم يسمعها سوى هو ورغبته فى إغتيال براءتها .. أعادت الصراخ مرة أخرى بصوت أعلى .. ولكنها لم تلبث أن تكرر حتى أغلق فمها سريعاً بيده كانت تحاول تكبيلها من كل الجهات ، محاولاً أن ينهى ما أراد فعله بها .. حتى كادت روحها تختنق .. ولكن قدرها كان أقوى منه ، لم يكن يعلم بأن أحد جيرانه يراقبه من خلف الأبواب المغلقة ، ينتظر حتى يلتقطه بالجزم المشهود .. خرج مسرعاً ليغيثها من بين برائته محاولاً ستر جسدها الصغير وهى ترتجف رعباً ووجها شاحب من الخوف ، نظر الرجل لوجه مريم الشاحب وكأن الشاب كاد أن تقتلها من شراسة تشبته بها .. أراد جاره أن يرحمها من قدرأ كانت ستعيش مُعذبة به طوال حياتها ..

أمسك الجار يدها برفق يتفحص وجهها ، لكنه صمت لثوانى ، شاردأ .. يفكر ماذا يجب أن يفعل معها ؟.. هل يخبر عائلتهما بما حدث ، أم يتركهما يرحلان فى صمت ؟ .. ماذا ستفعل تلك الطفلة بعد عودتها الى منزلها ؟ .. ظل يفكر لا يعلم ماذا عليه أن يفعل ! .. لكنه يعلم بما تعانيه مريم مع والدها كباقي جيرانها .. جميعهم بات يعلم بأن حامد يقسو عليها دائماً .. فخشى بأن يعاقبها حامد على جرم لم تفعله .. فقد قرر ان يُخبر الطفلة بأن لا تبوح لأحد بما حدث ، وأن تنسى ما حدث معها .. حاول أن يقنعها بأن الشاب كان يحاول اللعب معها .. نظرت له مريم فى دهشة ، مرددة بصوت مرتعب وجسداً ينتفض من شدة الخوف ..

- إنه لم يكن يلعب معى ، إنه أراد أن يلمس جسدى ولا يحق له ذلك ..

سمعها الرجل وكأن لحديثها صدى يتردد بكل مكان .. إندهش الشاب من حديثها القوي برغم خوفها الشديد الذى كان واضحاً فى نبرتها .. ربما لم يتخيل أنها رغم صغر سنها الا أنها لقنته درساً فى حقوقها كطفلة ..

لم يجد الجار طريقة سوى أن يحررها من بين يديهما ويترك لها الحرية لتفعل ما يحلو لها .. وتتفد ما تفكر به .. حتى إن كان قرارها أن تخبر الأهل والجيران بما حدث ..

ركضت مريم هاربة من المكان الذى علمتها فيه الحياة درسها الأول .. أسرعته تخبر والدها بما حدث معها .. قبل أن تدق الباب ، وقفت فجأة تفكر وقلبها ينبض خوفاً .. كيف ستخبره بذلك .. إنه لن يُصدق حديثها ، ولن يقتنع بأنها ليست مُذنبه وإنها مجنى عليها ..

قررت أن لا تبوح بما حدث لها خوفاً من أن يترك والدها الجانى ويعاقبها هى .. دخلت المنزل مطأطأة رأسها وكأنها هى من قامت بأبشع الجرائم .. تسير بوجه شاحب ونبضات قلب متلاحقة .. شاهدت العم سمير يجلس فى إنتظار عودة حامد من غرفته .. فكرت مريم بأن لا أحد سلفهم ما حدث معها ويؤازرها سوى العم الخلق سمير ، فهو الفقط من كان يهتم بها ويشعر بأنها تعاني مع حامد .. أنصت لها بإهتمام ولكنه لم يتحمل أن يحدث لها مكروه وأخبرها بأن الشاب يجب أن يُعاقب على ما حدث منه ..

أخبر حامد ما حدث مختصراً تفاصيله .. " لم تكن مريم تلعب فى غرفتها ، ولكن تسللت خارج المنزل دون علم أحد فتحرش بها شاباً من الجيران " .. إنتفضت مريم وأصبحت ترتجف خوفاً مما سيفعله بها والدها ، ترتجف وكأن العالم كله تكابل عليها وعصف بها الزمن الى وادى الظلم ..

لم يفكر حامد طويلاً فى عقابها .. قام بصفعها بكل قوته متهمها بأنها ليست إبنته الشرعية ، بل هى إبنة الخطيئة ، إبنة إمراة متحررة مثلها وما فعله الشاب هى السبب فيه ..

إستسلمت مريم لصفع والدها ولم تنهمر دموعها ، بل كظمت دموعها ومشاعرها وألمها .. إستسلمت ليداه التى تحاول تحطيم جسدها الضعيف بقوتها .. تنظر لعينيه التى إمتلأت بالقسوة ، وإتهامها بأنها لم تعد طفلة بل هى شبيهة والدتها الخائنة .. سجت دموعها كما سُجت هى فى قبو الماضى الذى سيظل يلاحقها مدى الحياة .. ولم يكن كما تعرضت له مريم من تحرش او صفع أو بُغض والدها لها ، هو أسوأ اقدارها ، بل كان بداية أقدارها التى تكالبت عليها مُعلنة بداية سلسلة من الأحداث القاسية ..

فربما لم تحمل السنوات العشر الأولى فى طفولة مريم بؤساً أقوى من أن تتعرض للتحرش .. فتلك الحادثة كانت النواة التى وضعها القدر بحياتها حتى تتعود على الألم .. أو تتعود على قسوة الحياة التى أبت أن تمنحها إبتسامة حتى لو عابرة ..

كانت حياتها مُسيرة ، لا حيلة لها بأن تقود مسيرة حياتها .. فهى فى نظر والدها وعائلته ، مجرد نواة لإمراة خانة زوجها ورحلت تاركة إياها .. بينما هى ظلت بين براثنهم .. حملت هى كل ذنوب الأم التى لم تقترفها .. فعاملها الجميع كمنسوخ تنبذ العائلة .. وتعلم بأنها ستعيش وهى تحمل إرثاً من ذكرى الأم التى لا تعرف حتى ملامحها .. تمنى كثيراً بأن يمنحها القدر صدفة عابرة تلتقى فيها بوالدتها .. لتقص عليها ما عانت منه فى غيابها .. أو لتخبرها بأنهم كانوا ينعوتها بأنها إبنة الخائنة .. كانت ترغب أن تعانقها ولو لمرة واحدة .. تسألها عن حقيقة ما لا تعلمه عن زواجها بحامد .. أو أن تجد شاطئ من الأمان ترتكز عليه .. أو أن يمحو من داخلها

شعورها بالغربة وسط تلك العائلة ، فهي تشعر بأنها لا تنتمي لهم كما كانت تشعر ليلي تماماً ،
تشعر بأن ليلي تركتها مع أغراب لا تعرفهم .. وأن حامد ليس الأب الذى يصلح بأن تسكن بين
ذراعيه لتختبأ من ظلم تلك العائلة ..

لم تكن تطمح بشئ أكبر من شعور بالدفا فى قرية لا يرحم أهلها الغرباء .. تنتظر حضاناً دافئاً
من أب لا يعرف سوى ما تمليه عليه عائلته .. كانت تحلم بأن تمسك يد والدتها وتسير بفخر
وسط تلك القرية .. ولكنها إقتنعت بأن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، وأن أحلامها أبعد من
نجوم السماء ..

عاد حامد الى قريته ليتوارى خلف عائلته هروباً من مسؤوليته تجاه إبنته التى ضاق بها ذرعاً ..
إجتمع بوالدته التى كانت تجلس على مقعدها الفخم وكأنه عرش ملكى .. يشكو إليها مرارة وحدته
، وما يعانيه مع مريم .. وكأنها سبباً فى جميع معاناته .. كانت مريم تسترق السمع وهما
يخططان

- يجب أن تتزوج مرة أخرى يا ولدى .. إن هذه الطفلة يجب أن يكون لها رادع ، وحتى تتعلم
قوانيننا .. وأنا إخترت لك عروس إبنة حسب ونسب ، وستكون لك زوجة مطيعة .. لقد إخترت
لك " أحلام إبنة الشيخ توفيق " إنها فتاة مطيعة ويتحدث الجميع عن أخلاقها وسيرة عائلتها
الطيبة .. وجميع رجال القرية يتمنون الزواج منها .

- ولكنها امرأة مُطلقة ولا تستطيع الإنجاب يا أمى ، كيف يمكن أن أتزوج من امرأة تزوجت من رجلاً آخر ؟ ، وأيضاً عمرها يفوق عمري بخمسة أعوام !؟

- لا يهم كل هذا ، فأنا يكفينى أن الجميع يتحدث عن أخلاقها .. أكملت حديثها بتهكم " فأنا لم أنسى حتى الآن سوء إختيارك لفتاة من المدينة ، وما حدث لنا بعد قدومها الى هنا" .

رد حامد بصوت خافت وهو يلتفت يمينا ويسارا حتى لا تسمعهما مريم .. نحن نعلم جيدا بأنها لم تخوننى يا أمى .. ولم تكن تعرف فى الأصل من هو الشيخ الذى اتهمتها بخيانتى معه .. ونحن نعلم أيضاً بأن لىلى لم تقترف ذنباً ، لكن عاداتها فقط لم تناسب عاداتنا ، وأنتِ أجبرتِ رجال العائلة أن يتهموها بالخيانة .. جميع ما حدث لها كان بمشيئتك أنتِ يا أمى .. فلا تتصلين مما حدث لها .

صُدمت نواهل لسماع ما قاله حامد لها ، وكأنه أراد أن يذكرها بأن كل ما يحدث له هى سبب فيه وليست لىلى أو مريم .. ربما كان ضميره يقظاً فى تلك اللحظات حتى يساعد القدر مريم لتتأكد أن والدتها منزهة عن ذلك العار الذى إلتصق بها ، ولحق بمريم من بعدها .. فحاولت أن تبدل الأدوار بينها وبين حامد وتعود هى لمقعد الأبرياء .. و ردت بإستهزاء :

- لم تكن مشيئتى أنا وحدى يا ولدى .. ألم تكن تلك هى رغبتك انت أيضاً يا ولدى ؟

صمت حامد مطأطأ رأسه ، فهو كعادته لم يستطيع التفوه ببنت شفة مع والدته سيدة القرية والمسيطرة على كل فرد فيها .. انتهى حديثهما بموافقة حامد على الزواج من .. ولكن لم يكن حديثهما عادياً على مسمع مريم ، بل كان مفاجأة لها .. فطالما حاولوا إقناعها بأن والدتها

توفت منذ زمن بعيد .. ولكن كانت فرحتها غامرة بزرع أمل جديد فى حياتها ، لإنها علمت بأن والدتها مازالت على قيد تلك الحياة ، وأن هناك أمل فى لقائهما يوماً ..

لم تنتظر جدتى طويلاً لتزوج والدى .. كانت الليالى ما قبل الزفاف طويلة عليه ، فشعوره بأنه لا يعرف عروسه مسبقاً حسب عادات القرية ولا يعلم كيف تفكر وكيف تتصرف ، كان يرهقه هذا التفكير كثيراً .. ولكن ليلة زفافهما كانت تشبه حفلات زفاف المشاهير ، فقد تجمع الأهل والجيران من كل أنحاء القرية والقرى المجاورة فى منزل جدتى وقاموا بمراسم الإحتفال وتقديم ولائم طعام فخمة الى الحضور .. كانت جدتى سعيدة لدرجة أنها كانت توزع أموال على الحاضرين ، مما فاجأهم كثيراً بتصرفها هذا .. كانوا أعمامى يستشيطنون غيظاً من إهتمام جدتى بوالدى .. إنها فى نظرهم تنفق ببذخ شديد على إبنها المدلل الذى لم يبذل مجهوداً فى إدارة شؤونهم يوماً ، بينما الحاضرين كانوا فى غاية السعادة مما يقدم لهم من أموال وولائم " هذا شئ طبيعى " .

أما أنا فمشاعرى كانت مختلطة ، ما بين ترقب وأمل جديد وخوف .. خوف من المجهول .. كيف ستتعامل معى زوجة والدى ؟ .. هل تحبنى ؟ .. هل ستساعدنى أن أبحث عن والدتى ؟ .. أشعر بأن هناك تغييراً كبيراً ستتحول بسببه حياتى كلياً .. أو بالأحرى بدأت أفهم ما ستؤول إليه حياتى ..

سافر والدى وزوجته الى القاهرة لقضاء عطلة زواجهما .. او كما يسمونه سكان القاهرة " شهر عسل " .. بعد مرور أسبوع ممل .. عاد والدى وزوجته للقرية .. كان الجميع فى انتظارهما بشغف شديد ، وكأن حامد وزوجته هما أهم إنجاز للعائلة .. فزوجته هى الزوجة التى تناسبهم وتناسب عاداتهم .. لا أعلم ما هو المميز فيها ، فقد غرق والدى فى حبها سريعاً ، أو بما لإنها

مطبعة كما قالت جدتى عنها .. " أو ربما لها من إسمها نصيب " فأحلامها كانت تصل عنان السماء ، وقدرتها على الوصول إليها كبيرة .. فبرغم حب والدى الشديد لها ، الا أنها لم تبادله الحب بقدر ما كانت تحب نفسها أكثر ..

فهي أرادت بزكاء أن يأخذ زواجها نمط مختلف بين أفراد عائلته ، جمعت بين تحرر ليلي وخجل بنات القرية ، فأستطاعت بمرور الوقت أن تفرض سيطرتها على الجميع ، تارة بقوتها وتارة أخرى بحديثها المعسول "وما أكثر حديثها المعسول" الذى كان يبتهج لسماعه كبار وصغار العائلة ..

مرت سنوات عجاف على حياتى بلغت فيهم عامى السابع عشر ، وبلغت أحلام الى أحلامها .. لم تكن تخطط للسيطرة على حامد فقط ، بل أرادت أن تسيطر على جميع أفراد العائلة .. فأستطاعت زوجة الإبن المدلل أن تنجح سريعاً فى الوصول الى قلب جدتى والسيطرة على تفكيرها .. وأصبحت كلمتها نافذة على الجميع .. فسريعاً ما وضعت جدتى بيديها كل ما تملكه العائلة من أوراق وأراضى .. وأصبحت هى المتحكم الوحيد فى قرارات العائلة ، وأوامرها يجب على الجميع تنفيذها .. الا أنا فقد كنت دائمة التذمر والأعتراض على كل قراراتها ، كنت أرفض دوماً أن تجعلنى كالدمية بين يديها .. ولكننى لم أستطيع الصمود طويلاً أمام نفوذها وقوتها ، فلم يكن أمامها غير طريق واحد لتتخلص منى سريعاً هو أن تكتب لى نهاية تليق بكونى ابنة زوجها ، نهاية تشبه نهايتها كثيراً فهي تعلم بأنها وأنا وجميع نساء القرية متشابهات ، وجميعنا مصيرنا محتوم ، ولكنها الوحيدة التى فازت بين نساء القرية وخرجت عن الطريق الذى يرسمه رجال القرية لنساءهم ، فأصبحت هى سيدة القرية عوضاً عن جدتى ، أما جميع نساء القرية الآخرين فعليهم

السمع والطاعة .. لم تنتظر طويلاً لتتخلص منى ، فأخبرت والدى بما تخطط له سريعاً ، بأننى
كبرت بما يكفى لأتزوج ..

- إنك لا تفكر مطلقاً فى إبنتك يا حامد .. أعلم أنك لا تحبها ، ولكنها أصبحت شابة يافعة
ويجب عليك أن تفكر فى مستقبلها .. فهى أكملت تعليمها الثانوى .. وقريباً ستطلب منك قبول
دخولها الجامعة .. فلما لا نغلق كل الأبواب ونرتاح من مسؤوليتها ونزوجها سريعاً ، حتى لا تأخذ
طريق والدتها ، فربما حينها ستتحمل عاراً أكبر من عار والدتها .

إقتنع والدى بحديثها ، فهى إستطاعت أن تلقى ظلال قوية على علته الداخلية ، فخوفه من أن
أصبح شبيهة والدتى كان كالشبح الذى يطارده دائماً .. فما لبث أن أنهى حديثهما حتى قرر
تزويجى لأحد شباب القرية .

أخبرنى والدى بما قرره .. لم أصدق فى البداية بأنه يعنى ما يقول ، كررت سؤالى عليه :

- هل تريد تزويجى حقاً يا أبى ؟ .. هل تريد تزويجى من شاباً لا أعرفه ؟

- رد بشراسة حاسماً قراره : نعم ستتزوجين من شاباً تختاره لكِ زوجتى .

- اتوسل إليك يا أبى الا تفعل معى هذا .. أتوسل إليك الا تؤدنى وانا على قيد الحياة .

- صفعنى بقسوة قائلاً : أتريدين أن تسلكى نفس الطريق التى سلكته والدتك !؟

أنهت باكية .. جسوت تحت ركبتيه ، أمسكت بهما لأتوسل إليه بأن لا يلقى بى فى قبر لم
أجهز نفسى له حتى ..

- أستحلفك بجدتى يا أبى ألا تزوجنى لرجل من رجال القرية ، فأنت تعلم ما يفعله رجال القرية مع زوجاتهم .. يا أبى أعلم بأنك لم تحبنى يوماً فلتعتبرنى فتاة غريبة عنك تطلب منك أن ترحمها .

حضرت جدتى التى أصبحت تتكأ على عصا لتستطيع السير محنية الظهر .. ختمت توسلاتى وصرامة والدى بقرار حاسم لا رجعة فيه ..

- ليس من شأنك أن تقبلى أو ترفضى الزواج ، فقد فعلت والدتك مثلما تحاولين فعله الآن فحدث لها ما لم يخطر على عقلها يوماً .. اليوم إنا سوف أمنحك الرحمة وأكتفى فقط بتزويجك . نظرت زوجة أبى لهما مبتسمة بخبث وكأنها تخلصت من ورماً خبيثاً منتشرأ فى جسدها .. " لم أنسى تلك الإبتسامه " يوماً .

لم يمر شهر على قرار والدى وزوجته .. وقد أتمت ما خططت له زوجته .. إختارت لى عريساً من أبناء القرية يفوق سنى بخمسة عشر عاماً .. لم يكمل دراسته الإبتدائية .. لم يبق لى شيئاً فى بيت جدتى " لم يكن لى شيئاً فى الأصل فى بيتها "

بالرغم من مرور خمس سنوات على زواجى من " بدر " ، إلا أننا لم يربط بيننا سوى فراش
يجمعنا بدون مشاعر .. لا نتحدث الا قليلاً ، فلم يكن بيننا يوماً لغة حوار مشتركة ، زواجى منه
أشبه بسجين لا يرى أشعة الشمس الا نادراً .. لا يتعامل سوى مع السجن .. فكنت أنا سجينته
وهو السجن .. أشعر بأن روحى تتألم ولا أستطيع أن أحررها من هذا السجن .. فأكثر ما يؤلم
الروح هى أن تعيش مسجونة بمكان لا تنتمى إليه ولا ينتمى إليها .. لا أحد يفهمنى سوى أوراقاً
أكتب فيها ما يجول بعقلى وقلبى من مشاعر ، وبعض التجارب لكتابة روايات أعيش فيها مع
أبطالها .. أتحدث أحياناً مع أوراقى ، أبوح لها بما لا يمكن أن أبوح به لبشر .. فكيف أبوح لبشر
بأننى فقدت كل ما أملك من أمل ؟ .. أو أبوح بأننى زوجة تعيش جسداً بلا روح ؟ أو أن زوجى
يعاملنى كأنه يفرغ فيه رغبته فقط ؟ " لا أملك القوة التى تمنحنى رفاهية البوح بألمى " فتعودت
مرغمة أن أسرد لأوراقى ما يؤلمنى أو ما أتمناه .. إنها تفهمنى كثيراً .. أشعر أحياناً إنها تعانقنى
لتخفف عنى الألم .. فهى تعلم بأن حياتى تسير ببطئ شديد .. ولكنى رضيت بقدرى حتى بات
قلبى كقطعة حجر لا يشعر حتى بالليالى شديدة البرودة .. عندما أشاهد اهل القرية يمكنون فى
منازلهم للأختباء من شراسة الشتاء وبرودته ، كنت أتعجب " لماذا لا أشعر مثلهم ببرودة الطقس
! .. يبحثون هم عن الدفأ فى منازلهم ، بينما أنا كنت أخرج للشرفة لأنطلق الى النجوم فى السماء
.. أنتظر حين تنتهى الغيوم ليلاً وتفسح المجال لظهور النجوم .. فأتأمل نورها الصغير وأتحدث
إليها .. هل يمكن أن أكون نجمة يرغب أحداً ما فى أن يمسك بى ؟ .. فدائماً ما كنت أقرأ فى
الروايات بأن العاشق يرى معشوقته كنجمة فى السماء .. بالتأكيد يراها كالنجوم من فرط حبه لها
.. أما أنا فلم يحببنى أحد سابقاً .. ولن يحببنى أحد .. "إننى حتى لا أعلم كيف هو شعور الحب"
.. ربما شعور العشق يشبه الشعور بالدفأ فى ليالى الشتاء .. أو ربما العشق هو الشعور الذى

يملاً أرواحنا بالأمل .. او ربما يكون العشق لمسة عابرة من طفل حديث الولادة .. لا ، العشق مؤلم ، فإذا إنتهت قصة عاشقان بالزواج فيصبح العشق مؤلم كالم المخاض .. لماذا لا أطلق العنان لخيالى بأن يعيش قصته الخاصة مع زوجي ؟ .. نعم ، يجب أن أمنح زوجي فرصة .. ربما تتغير حياتي ، أو أستطيع أن أجعله يحبني ، أو يمنحني فرصة أن أحبه .. سأترك خيالى يفكر كيف يمكن أن يحبني ..

ركضت متحمسة نحو بدر حتى أخبره بأن زواجنا ينقصه الحب .. ينقصه أن نجد لأنفسنا وقتاً نقضيه معاً .. إننى يجب أن أتخلص من شعورى بالحرمان من الحب .. ويجب عليه أن يعرضنى عن ما مضى .. لم البث أن أكمل حديثى .. زجرنى بعيداً عنه ورد بحدة :

- لا يعرف الرجال فى قرينتنا ما تسموه عشق .. فالرجل يتزوج لتكون زوجته ملكاً له يفعل بها ما يشاء ، او حتى ليكسر لزوجته ضلوعها ، لتتعود على عاداته وتتجلب له رجالاً أقوياء وليس رجال ضعفاء كالنساء .. إحدري أن تحدثينى عن تلك الأشياء مجدداً .. والآن هيا بنا نذهب لغرفتنا حتى آخذ منك ما أريد ..

لا أعلم كيف مرت تلك الليلة بيننا ، ولكن كل ما أتذكره أننى تألمت .. تألمت كثيراً وأنا بين ذراعيه ، وكأن لمسته لى تقتل كبريائى ، توأد أنوثتى .. شعرت بأننى مسلوبة الحقوق .. أن روحى تُغتصب من رجل لا أعرفه .. وأنا فى حالة إعياء شديدة ، وكأننى ألفظ أنفاسى الأخيرة .. كانت تلك الليلة من أشد الليالى وطأة على قلبى وعقلى ، بل وعلى روحى أيضاً .. أصبحت بعد تلك الليلة صامتة أغلب الأوقات .. لا يغرينى شئ فى تلك الحياة ولا تسعدنى كتاباتى التى كنت أغوص معها فى عالم آخر يسعدنى البقاء فيه .. أتذكر ان جميع أيامى باتت تشبه بعضها

.. حتى ثارت روجى فجأة .. أيقظنى ضميرى على صوته الذى كان يحثنى على أن أجمع شتات
نفسى .. ألملم إنكساراتى وخذلانى من الجميع .. أن أعيد روجى لمكانها .. فبات صوت عقلى
منافساً لى متحدياً صمتى .. ولكننى كنت أعتاله من داخلى مراراً .. كنت أعم بأن لا مفر من
قدرى ، ولن يغيره شئ حتى صوت عقلى الذى يصيح بداخلى كل يوم .. يصمت فقط حين أنام
.. فكنت أسرف فى النوم حتى يسكت صوت عقلى .. لكنه أصبح يحاربنى .. يقتل صمتى
وسكونى الطويل .. يؤلمنى حتى فى نومى .. حتى أيقظنى تلك الليلة وكأنه يمنحنى فرصة أخيرة
لأسمعه وأتواصل مع روجى .. وأحافظ عليها ممن يريدون قتلها ..

فأيقظنى صوت عقلى مرغمة فى ليلة أخرى .. لا أعلم كيف إستيقظت هكذا فجأة .. أترجل من
فراشى نحو المرأة المقابلة للفراش ..

شعرت بأننى شخص مختلف عن ما أنا عليه .. تلك المرة إستيقظت روجى .. أو قررت أن
تثور .. أن تخرج من ذلك الصندوق الأسود الذى سكنته لخمس سنوات فى زواجها .. وقفت أمام
المرأة أطلع الى وجهى بعمق لم أقوم به يوماً .. فأنا لم أطلع الى نفسى فى المرأة منذ سنوات ..
لا أريد أن أرى نفسى المتهالكة الضعيفة .. ولكننى تطلعت اليها تلك المرة .. بل تحدثت معها
بقوتى المتهالكة ..

مرت السنوات دون أن أشعر بها ، لم يلفت إنتباهى يوماً ظهور بضع شعرات بيضاء فى مقدمة
رأسى .. هل كبرت الى ذلك الحد؟! بدأت ألمس وجهى وأنا أتسائل ..

هل بدأت تظهر فى وجهى تجاعيد وأنا فى العشرين من عمري أم انا يخيل لى هذا ؟ ..

أشعر أنى مشوشة .. حسناً سأعود للنوم مرة أخرى .. غفوت وأنا لا أبالي بما يجول بعقلي من افكار .. ولكنى فى صباح اليوم التالى لم أستطيع السيطرة على أفكارى متصنعة اللامبالاة .. وقفت مرة أخرى أمام المرآة أتفحص خصلات شعر ، أسائل :

هل زاد عدد الشعيرات البيضاء ام اننى كنت أحلم بذلك ليلاً .. إنها ليست مجرد شعيرات غطاها اللون الأبيض لفتاة عشرينية .. بل هى علامات لتلك السنوات التى مضت .. علامات الألم الذى أحيا به منذ طفولتى .. حاولت أن أخفيه داخل صندوق أسود بداخلى .. ولكن يبدو أن شعرى رفض أن يخفى التغيرات التى حدثت له تلك السنوات .. ظهر ليخبرنى بأن ألمى أكبر من أن أحتفظ به بداخلى أكثر من ذلك .. يجب أن أتحرر من كل تلك القيود ربما أستطيع أن أتحرر من الألم ..

وضعت يدى على وجهى ، يبدو أن التجاعيد لم تسنح لها الفرصة لتسيطر على ملامح وجهى .. لم تفعل مثلما فعل شعرى ..

أبتسمت ابتسامة بائسة : لابد ان التجاعيد لم تكن قوية بما يكفى لتظهر على وجهى الذى لم يبتسم منذ سنوات ..

شردت لبرهة .. أشعر وكأن شيئاً ما يتحدث معى عبر المرآة .. يحدثنى بنبرة قوية محفزة :

- إستيقظى يا مريم ، فأنتِ مازلتِ تلك الفتاة التى لم تتزوج منذ خمس سنوات .. إنكِ لم تتزوجين ذلك الرجل الذى فرضته عليكى تلك العائلة .. لقد عاد صوت عقلى مرة أخرى .. إنه يحاربنى حرباً شرسة .. يحارب ضعفى ، ويقوينى على سكونى .. لا تستسلمى يا مريم فالفرصة مازالت أمامك لتعودى الى بيت جدتك ..

لا لا .. لن أكرر ما فعلته سابقاً .. مازلت أتذكر ذلك اليوم الذى ذهبت فيه لجدتى مستنجدة بها
أطلب منها الا تجبرنى على العودة لزوجى .. إنه ضربنى ضرباً مبرحاً يا جدتى بلا سبب .

- اتريدى أن تجلبى لنا العار مثل والدتك ؟

- لكننى لم أشبه أُمى يوماً .. إنها رحلت وأنا أتألم يا جدتى .. أستحلفك أن لا تجبرينى على
العودة له .

إقتربت منى الجدة ونظرت بعينى نظرة ثاقبة وهى تردد .. تشبهين أمك تماماً فى تمردها ،
تشبهينها فى تصنعها للألم .. تشبهينها فى كرهها لعاداتنا .. هل تريدان ان تعودى لبيت والدك
وتجعلين الجميع يتحدث عن سوء سمعتك ؟ ، ام تذكرينهم بأن لكِ أم خانة زوجها وتركت كل
شئ خلفها ورحلت ؟ .. نحن لا نملك لكِ حلول ، سوى العودة لمنزل زوجك .. ويجب عليكِ أن
تحمدى ربك بأنه وافق على الزواج من فتاة والدتها مثل أمك ..

كانت كلمات جدتى حادة وقاسية ، حينها أدركت بأننى لن أنجو من ذلك الزواج ..

اليوم أنظر لنفسى فى المرآة لا أرى سوى أشلاء من روحى .. فأبعد عيني عن المرآة ثم أعاود
النظر مرة أخرى .. فكلما نظرت فى المرآة وجدت سيلاً من الذكريات يعود لى مرة أخرى ..

لم يكن زواجى من هذا الرجل هو عقابى الوحيد من والدى وعائلته على ما فعلته والدتى معهم ،
بل كانوا يضعون أمامى العديد من الحواجز حتى أستسلم لرغبتهم فى الزواج .. وأن لا أكمل
مسيرتى التعليمية .. بينما انا فكانت تلك هى المرة الأولى التى أرفض فيها عاداتهم القديمة التى
كانوا يقتنعون فيها بزواج الفتيات مبكراً ولا يجب أن يكملن تعليمهن .. لم أرضخ لتلك العادات
ولم أستسلم لهم .. قررت أن أحطم تلك العادات حتى لو اضطرت أن أواجه ملايين العقوبات ..

فأنا فى نظر أهل القرية الفتاة الوحيدة التى أكملت تعليمها دون باقى فتيات العائلة ، لما لا أقف أمام عقلياتهم المظلمة التى إمتلأت بعبادات بالية ، مضى الزمن وقوانينهم مازال كما هو ، وكرههم للفتيات كما هو ..

أتذكر يوم عرس إحدى بنات عمى .. كان جميع نساء العائلة مجتمعات يتحدثن عن الفرق بين الزواج قديماً وحديثاً ، حينها رمقتنى إحداهن بنظرة لوم متسائلة ..

الم يكن من المفترض أن تبحثين عن عريس عوضاً عن إكمال تعليمك الجامعى ! .. لقد تزوج جميع بنات العائلة قبل زواجك وجميعهن أصغر منك سنأ .

كان حديثها بالنسبة لى مجرد حديثاً عابراً ، ولكنه لم يكن كذلك بالنسبة لزوجة والدى التى لم تتردد فى إستغلال حديثها لمصلحتها فى إبعادى عن والدى والسيطرة عليه ..

اليوم تأكدت بأنه ليس شرطاً أن تظهر على وجهى تجاعيد كبار السن لأشعر بأننى كبرت .. ولكن هناك ألماً كثيراً تختبئ خلف هذا الوجه ..

اليوم أنظر نحو المرأة لأنفق وجهى جيداً .. الم تظهر عليه تلك العلامات ؟ .. إنها حتماً تختبئ بداخل هذا الجسد الذى يبدو سليماً من الخارج ..

هرعت لنزع ملابسى عن جسدى وأنا أتفحص جسدى جيداً متسائلة .. هل إختفت علامات ضرب والدى وزوجى أم أنها مازالت موجودة ؟ .. يبدو أن هناك بعض الندبات مازالت موجودة بأجزاء متفرقة من جسدى .

نظرت لذراعى فى المرأة : كم عاماً مر على تلك الندبة الموجودة بذراعى ؟ .. يبدو أنها ترفض الرحيل من جسدى .. هناك ندبة أخرى بساقى .. لا أعلم من تسبب بوجودها .. هل كان والدى أم زوجى ؟ .. لا أعلم هل هناك الكثير منهم فى ظهرى ؟ .. مازلت لا أعلم أيهما تسبب فى وجودهم ..

لا أشعر بألم عند لمسهم .. ولكن هناك ألم آخر يختبأ لسنوات فى جسدى أشعر به عند لمس تلك الندبات .. ولكننى تعودت على الشعور به .. وكلما تجددت الأذى أشعر بأن صندوقاً بداخلى قد فُتح ليخرج منه وجعاً سابقاً .. أعلم أننى أكن قوية بما يكفى لأفرض قوانينى الخاصة على تلك العائلة حين أرادوا أن يزوجونى من هذا الرجل .. وأشعر أحياناً بأن ما عانيته ومازلت أعانيه هو بسبب صمتى على ما يقترفوه من أخطاء بحقى .. كان علياً أن أثور .. أن أصرخ بكل قوتى وأرفض عاداتهم .. أن أرحل بعيداً عن تلك القرية .. ولكننى وجدت نفسى اعتقت عاداتهم مرغمة .. أصمت كما تصمت جميع الفتيات من العائلة .. أرضخ لتلك القوانين القاسية التى لا تعترف بأن القلب خلق لينبض لمن أحتضن آلامه ..

لا أعلم كيف مرت تلك الخمس سنوات فى زواجى .. ولكن الان أعرف جيداً أن تلك السنوات كسرت بداخلى الحياة .. سرقت منى أحلامى ، أصبحت حياتى تتوشح باللون الأسود .. فأصبح الصمت هو طريقي فى التعبير عن ما أقبليه أو يفرض على حياتى .. أشعر بأن قدرى ربما أكون قد صنعتته بيدي حين إستسلمت لتلك العادات .. حين صممت عند حرمانى من الشعور بأننى أنثى تمتلك قلباً يرغب فى أن ينطلق للحياة .. أن أضحى أمام الجميع وأخبرهم بأننى لست مجرد جسد يباع لمن يرغب فى شراؤه ، وأننى لست جارية عليها تلبية إحتياجات زوجها ..

إبتعدت عن المرأة قليلاً وأنا أنظر لملامحي من زاوية بعيدة .. أشعر أنني أفضل الآن .. هكذا يجب أن أتخلص من السجن الذى سُجنت فيه منذ طفولتى .. يجب أن أعود لحضن أمى .. أنا حقاً أحتاج إليها .. أحتاج لها حتى تعانقنى عناقاً طويلاً عوضاً عن كل السنوات الماضية .. أن أستعيد طفولتى التى سلبها منى الجميع فى تلك القرية .. لقد حان وقت التمرد .. وقت العودة لسنوات أنوثتى ...

هكذا كانت كلماتى حين أردت أن أرحل عن تلك القرية وأبدأ رحلة البحث عن والدتى التى أعلم جيداً بأنها ستعيد لى طفولتى .. قررت البحث عنها فى المدينة ولم أكن أعلم بأن القدر سيكتب لى فيها قصة عشق .. قررت الهروب من القرية ليلاً دون أن يعلم أحد بذلك .. لم أفكر فى رد فعل زوجى أو جدتى أو والدى .. فليس هناك وقت للخوف منهم ، فقد قررت أن أصنع عالم جديد أتحرر فيه من كل القيود التى تحاوط بى ..

غادرت القرية وقد إعتزمت نسيان كل ما مررت به فيها .. لم أفكر بما ستؤول اليه حياتى بعدها ، ولا لما سوف أواجهه فى مدينة لا أعرف أحداً فيها سوى والدتى التى لا أعرف أين تسكن .. كل ما أعرفه هو أنني تحررت أخيراً من تلك القيود ..

كانت رحلة بحثى عن والدتى طويلة وشاقة ، فقد واصلت البحث عنها لثلاث أيام ولم أجدها .. فكان كل ما جمعته من معلومات عن مكان إقامتها .. كان ورقة صغيرة وجدتها بداخل صندوق

قديم كان يحتوى على عنوان جدى ، وبقايا ملابسها التى تركتها قبل رحيلها عن القرية .. لا أعلم إن كان ما كتب على تلك الورقة هو عنوانها أم لا ! ..

حين عثرت على عنوان المنزل المذكور فى الورقة .. وجدته قد تبدل وبنى مكانه دار للأيتام .. وقفت لدقائق وأنا احاول النقاط انفاسى ، فقد فقدت الأمل الوحيد الذى أملكه لأصلالى والدتى .. دخلت للدار أسأل عن منزل جدى ربما يعرف من بالدار مكانهما ..

قابلت مديرة الدار (السيدة حكمت) وهى إمراة فى منتصف الخمسين من عمرها ، تظهر على وجهها الطيبة الشديدة .. أخبرتني بأنها لا تعرف شيئاً عن والدتى فقد بُنيت تلك الدار منذ سنوات وهى لم تتواجد أثناء انشائها .. جلست أمام مكتبها وأنا أشعر بإحباط شديد .. لا أعلم أين والدتى ؟ ، ولا كيف سأعيش بمفردى فى تلك المدينة الغريبة ؟ ..

أفكر الى أين سأذهب .. هل أعود للفندق مرة أخرى وأنا لم أعد أملك أموال لسداد إقامتى به ؟ ، أم أعود لوالدى وعائلته مرة أخرى ؟ .. كانت تلك الفكرة تصيبني بالرعب الشديد " لن أعود مرة أخرى مهما حدث " .. بدأت الدموع تنهمر متتالية من عيني دون إرادتى ، فهذا هو فشلى الأول فى المدينة ، الفشل الذى سوف يجبرنى أن اعود للسجن مرة أخرى ..

خرجت السيدة حكمت من مكتبها ، شاهدتني مازلت أجلس بالقرب منها ولم أغانر الدار .. سألتني بهدوء :

- لماذا تجلسين هكذا يا أبنتى ؟ .. ولماذا تبكين ؟ هل كان من تسألين عنهم أقارب لك ؟

لا أعلم لماذا لم أخجل من إخبارها ببعض التفاصيل الصغيرة عن حياتي وعن سبب إنتقالي للمدينة .. ربما بسبب إحتياجي الشديد لشخص يعاونني على البحث ، أو يكون سند لي في المدينة .. لا أعلم ولكني قررت أن أتخذها أماناً لي ..

فاجأتني هي بما لم أتوقعه .. فقد عرضت عليّ العمل معها بالدار والأقامة به .. لم أفكر طويلاً في عرضها فأنا لا أملك خيارات أخرى بديلة .. كنت أشعر بالوحدة الشديدة في أول أيام عملي بالدار كان عملي بالدار .. وكلما شاهدت الأطفال بالدار ، كنت أتذكر تفاصيل طفولتي .. ليس هناك فرق كبير بيننا .. هؤلاء الأطفال فقدوا عائلاتهم ، وأنا عشت لسنوات مع عائلة لم أشعر معها بطفولتي .. جميعنا حُرمننا من حنان ودفء العائلة ..

حاولت كثيراً كتمان مشاعري أثناء التعامل مع الأطفال .. أتجنب الإقتراب منهم ، وكأني أخاف عليهم مني .. أخاف أن أقسو عليهم دون وعي .. فلطالما شعرت بأنني لا أصلح لأن أتبادل مع أحد مشاعر الحب " أو ربما مقولة فاقد الشيء لا يستطيع تقديمه للآخرين صحيحة" .. ولكن القدر أراد أن يمحي ما آمنت به لسنوات ويبدله لشعور أكثر أماناً ..

لم يكن هناك طفل من أطفال الدار مميز بالنسبة لي سوى طفلة في الثامنة من عمرها .. تجلس دائماً بمفردها بعيداً عن الجميع .. تذكرني عزلتها وإنطوائيتها بنفسى كثيراً .. جلوسها بعيداً عن باقي الأطفال كان تثير فضولي كثيراً .. فكلما حاول أحد الأطفال الإقتراب منها أو دعوتها للعب معه فترفض بحسم ، ثم تنظر نحوي وعيناها ممتلئة بالتساؤلات .. كأنها تتحدث معي وتطلب مني أن أجلس بجوارها لتخبرني شيئاً ما تخفيه عن الجميع .. ولكنني كنت أتجنب النظر إليها ، حتى لا أرى ضعفها فيها ..

اشعر بأننا متواصلين دوماً بالرسائل الصامتة ، وأن هناك شيئاً ما يجذبني نحو تلك الطفلة ..
ينتابني الفضول ولا أستطيع إبعاد نظري عنها ..

.. تلك الطفلة ربما شعرت بأن هناك ما يجمع بيننا .. ولكنني علمت بأن هناك الكثير من
التشابه بيننا .. وأن بداخلنا قصص متشابهة ، كأنها تعيد لي طفولتي وذكرياتى التي حاولت
إخفاؤها بداخلي .. وكأن قدرى وضعها في طريقى لأعيش مرة أخرى ما مضى .. أصبحت
معها أعيش اليوم بتفاصيلها هي .. وللمرة الأولى منذ سنوات إبتسمت عيني التي ملأها الحزن ..
أما عنى فحاولت أن أعوضها ما حُرمت أنا منه ..

أتذكر يوماً سألتنى عن والدى .. هل هو مازال على قيد الحياة ؟ .. لم أستطيع حينها أن أعترف
بأنه هكذا .. ربما كانت مشاعر الغضب منه مازالت مترسبة بداخلي ، ومازلت لم أستطيع
التخلص منها .. أردت كثيراً أن أحبه للدرجة التي أكون فيها فخورة بكونى إبنته .. ولكن ما
يحدث هو عكس ما نتمنى ..

إبتسمت لها وإحتضنتها .. ما رأيك يا ريم ان تكونى أنتى عائلتى الوحيدة ؟

إبتعدت عنى قليلاً فجأة وهى تنظر لى بغرابة ، قائلة : ولكنك سوف ترحلين يوماً مثلما رحل
والداى .. هل سترحلين مثلهما ؟

انتفض قلبى لكلماتها وكأننى أعيش شعور الفقد مرة أخرى .. وحاولت أن لا أتفوه بكلمات وعود
ربما لن أفى بها يوماً .. ولكننى شعرت بأنها حقاً أصبحت جزءاً من روحى ، أشعر وكأنها أنا
فى جسد طفلة .. وبأن رحيلى عنها يوماً سيؤلمنى أكثر منها .. مسكت بيدها الصغيرتين
وقبلتهما برفق ..

- أعددك بأننى لن أرحل يوماً ، سأكون معك لسنوات طويلة حتى تكبرين وتصبحين عروساً جميلة .. ما رأيك ؟

عانقتنى بلهفة .. فقد شعرت بالأمان وتخلصت من خوفاً كان يقيد فرحتها لسنوات طويلة ، او ربما تخلصت أنا من شعورى الدائم بأن ليس هناك شخصاً يرغب بوجودى فى حياته .. بل ان إحتضانها لى المغمور بالأمنيات والأمل بمثابة الأمان الذى بحثت عنه بعائلتى حتى أصبحت هى عائلتى ..

مرت شهور بالدار كنت أشعر بأن ايامها طوال وأنا أبحث بكل مكان عن والدتى ولم أستطيع العثورعليها ، حتى بدأ ينتابنى اليأس والأستسلام للعمل بالدار .. أصبحت أعمل لساعات طويلة نهاراً ويجافينى النوم ليلاً من مرارة التفكير .. كانت ريم الإبتسامة التى تمحو تلك المرارة .. ورواياتها التى تسردها لى كل ليلة هى الأمل فى المستقبل .. لا أعلم من أين تجلب تلك القصص ولكنها مسلية كثيراً ..

سردت لى ذات مرة بأن والدها كان يلعب معها بإحدى العابها وطلب منها أن تتعلم العد على إحدى الألعاب ولم تستطيع هى العد حينها ، ولكنه لم يغضب منها لأنه يحبها كثيراً ..

كانت قصتها وهمية وهى تعلم ذلك جيداً ، ولكنها تؤمن بحروفها جميعاً .. أرادت أن تتخطى حرمانها من أبويها بقصصاً تجمعها بداخل قلبها وعقلها ..

كنت أنصت لها واومئ برأسى وكأننى أصدق ما تقوله .. ابادلها الحديث ببعض التساؤلات التى كانت تجيب عليها بسلاسة وسرعة بديهية .. جعلتى أصدق بأنها عاشت لسنوات مع عائلتها .. وانا حينها لم أكن أنوى شيئاً سوى الا أشتت تركيزها وأبعدها عن عالمها الخاص الذى نسجته

لنفسها لتشعر بالطمأنينة .. ولكنها لفتت إنتباهي لما تشاركناه سوياً .. وهو الأمان الذى نبحث عنه .. أردت أن أشبع رغبتى فى الحصول على عائلة أشعر معها بالحب حتى لو كان مجرد خيال أنسجه أنا بنفسى داخل عقلى وقلبى ..

جلست أفكر .. كيف لطفلة فى هذا السن الصغير تجد علاجاً خاصاً بها يشعرها بالأمان ، وأن تكون طفلة سوية لا تشعر بالنقص ! .. ربما يكون هناك ما تخفيه تلك الطفلة بداخلها .. ماذا لو كانت قصصها حقيقية ؟.. ذهبت مباشرة الى غرفة السيدة حكمت لأسألها عن حياة مريم قبل وجودها بالدار ..

أخبرتني بأن مريم ليس لديها عائلة ، وقد توفى والديها بحادث سيارة ، ولم يتبقى أحد من أفراد عائلتها سوى عمها وزوجته ، وقد هاجرا مباشرة بعد وفاة أخيه وتسليمها للدار ، وقد أخبرنا بأنه لا يستطيع تربيتها معه .. وتوعد بالتبرع شهرياً للدار والتكفل بمصاريفها ..

- وهل وفى بوعوده ؟

- إعتقد أنه نسى انه أودع إبنة أخيه لدينا يوماً .

شعرت بالحزن الشديد نحوها ، فقدرها أن تعيش بدار للأيتام ولديها عائلة ، وأنا قدرى أن يكون لى عائلة يكرهون وجودى .. لم أفكر طويلاً فيما إذا كان هناك شيئاً أقوم به من أجل تعويضها عن خيبة الأمل تلك .. ولكننى وعدتها بأننى سأكون عائلتها ..

كرست وقتى كله لها ، و علمتها أن تحاول إختيار عائلتها من اطفال الدار .. فقد إختارت جميع الأطفال إخوة لها .. وإستطاعت الخروج من عزلتها ووجدتها من تلقاء نفسها .. او ربما عندما تأكدت بأننى دائماً بجوارها ..

وبدأت أنا أيضاً بالخروج من عزلتي وسرد ما يدور بعقلي من روايات يصنعها خيالي على الورق .. كتبت عن رحلتي من القرية حتى وصولي للدار .. كتبت أيضاً عن كل ما مررت به من ألم .. وأنتى سأظل أبحث عن والدتي دوماً ..

هكذا علمتني إبنتي الصغيرة .. أن أشفى الآمى بالكتابة .. كنا طبيبان بعضنا ، وبرغم صغر سننا ، إلا أنها كانت رفيقة دربي لعامان .. إستطاعت فيهما أن تعيد طفلي الداخلى للحياة مرة أخرى وتعليمه أن الحياة مهما قست علينا ، إلا أنها ستبتسم لنا يوماً ..

ولكن قدرنا كتب لنا طريقاً آخر لم اتوقعه ، حين قرر عم ريم وزوجته بعد أن فقدنا طفلهما أن يأخذاها من الدار والهجرة مرة أخرى .. كانت مشاعري يومها مختلطة ، لا أعلم هل يجب ان أشعر بالسعادة لأن ريم ستشعر بحضن العائلة الذى فقدته منذ سنوات .. أم أستسلم لشعور الحزن الذى إنتابنى فور علمى بالخبر ؟ .. كيف سيأخذون طفلتى ورفيقة دربى بتلك البساطة ؟ ..

حاولت أن أتقبل ذلك الحدث ، والسيطرة على مشاعري وعدم الإستسلام لأنانيتى تجاهها .. وعندما حان ميعاد مغادرتهم للدار مصطحبين معهما ريم .. حينها نظرت ريم نحوى بنظرات لم يفهمها سوى انا .. وكأنها لا ترغب بالرحيل ، وتطلب منى أن أمنعها من إصطحابها معهما .. ولكننى حاولت تجاهل نظراتها لى ، وصنع إبتسامة مزيفة على وجهى احاول بها إخفاء الألم العميق بقلبى .. وحاولت توديعها سريعاً حتى لا تنهمر دموعى مرغمة أمامها .. وأنا اترقب خطواتها سيراً نحو باب الدار ، لم أستطيع التماسك فإستدرت متجهة نحو غرفتى خوفاً من أن ترى دموعى ، إلا انها لم تستطيع هى الأخرى المغادرة بدون أن تترك لى وداعاً يظل عالقاً

بذاكرتى للأبد .. فهرولت نحوى وتمسكت بى وهى تبكى وتتفوه بكلمات غير مفهومة .. إنحنيت لها أمسح دموعها وأنا أبكى بقوة تتخطى حبى لها أضعافاً .. وطلبت منها أن تعدنى بأن تكون قوية كما تعودنا سوياً .. ووعدها بأن أرسلها طوال حياتى حتى تصير عروساً كما وعدتها سابقاً .. طمأنتها كلماتى وإستسلمت للرحيل .. بل رحلت وقلبى رحل معها .. وأنهت فصلاً جديداً من الألم بحياتى ..

لا أعلم لم تجربنا الحياة على فراق من نحب ؟ .. لما تجربنا أن نعيش بألم الذكريات ؟ .. ليس إنصافاً منها أن تفعل بنا هكذا .. هل علينا أن نتقبل مرارة عالم يقسو علينا كل يوم ؟ .. هل يجب أن نتناسى ألم يسكن بقلوبنا ؟ .. كثير من التساؤلات قد دارت بعقلى لا أعلم ما إجابتها ، لكننى أحتفظ بها بداخلى حتى أجد لها تفسير ..

لم يكن فراق ريم مؤلماً ، بل كان بداية رحلة جديدة لصنع الأمل كما علمتتى هى ذلك .. فقد فتحت أمامى باباً جديداً للعمل بمكان آخر .. فالدار لم تبقى مكاناً أشعر فيه بالسعادة ، بل كل الأماكن تذكرنى بها .. ضحكتها ، صوتها حين كانت تتادىنى .. فكانت ذكرياتى معها تلاحقنى بكل مكان ، وأرغمتتى على التفكير بالرحيل من الدار بعد رحيلها ببضعة أيام .. فقد أجمعت شجاعتى وأخبرت السيدة حكمت بقرارى .. ولكنها لم توافق عليه معللة بأن جميع أبناء الدار سواسية ويحتاجون هم أيضاً أما لهم .. وأن ما كنت أقدمه لريم من رعاية وإهتمام ، يحتاجه جميع أبناء الدار مثلها تماماً .. فيجب أن أنتظر لبضعة شهور أخرى حتى تجد بديلاً عنى يساعدها فى العمل .. حينها شعرت بأنها محقة ، فهولاء الأطفال أيضاً تقع على عاتقى مسؤولية تجاههم .. فقررت المكوث مرة أخرى ونسيان فكرة الرحيل ، وفى كل مرة كنت أشعر فيها بالحنين لريم .. كنت أخرج سريعاً ورقة وقلم وأسرد فيها قصة من خيالى كما علمتتى .. يا لها من طفلة قوية !

، إنها كانت تجبرنى أن أبتسم على أصغر كلماتها الغير منطقية .. كانت تجبرنى على الدخول فى تفاصيل رواياتها وأنا سعيدة ويغمرنى الشغف .. كنت أنتظر نهاية قصصها وأنا أصدق كل حروفها ..

اليوم أنا أشبهها تماماً .. أسرد على الورق روايات لم أعيشها قط ، وأكتب عن أبطالاً لم أتحدث يوماً معهم سوى بخيالى .. ليتنى أستطيع الآن أن أخبرها كم إشتقت إليها ..

قبل رحيلى عن الدار أخبرت السيدة حكمت بأن حلم إكمال المرحلة الجامعية يراودنى منذ أن أجبرنى والدى على نسيان فكرة الإلتحاق بالجامعة وإرغامى على الزواج من رجلاً لا أعرفه .. قررت السيدة حكمت بأن تساعدنى .. إبتسمت إبتسامة هادئة كعادتها قائلة : سيفعل الله ما يشاء ، وسأكون دائماً بجوارك حتى تحققين جميع ما حلمتى به ..

كانت كلماتها حينها بمثابة الأمل الذى أنار لى طريقى .. والقوة التى تسلحت بها حين قررت الرحيل من الدار .. وساعدتني بدورها فى الخطوات الأولى للتقديم للجامعة ..

إنتهت رحلتى بالدار سريعاً .. وحين موعد رحيلى عنه .. بل يجب أن أغلق صفحة جديدة من صفحات حياتى .. لم تكن خطواتى الأولى بعد رحيلى عن الدار صعبة بقدر ما كانت مخيفة .. فكانت خطواتى الأولى هى إكمال مسيرتى التعليمية .. كنت أقضى وقتى كله فى التفكير فى تلك الخطوة .. فبرغم شغفى تجاهها ، الا أنني كنت أتراجع أحياناً عنها .. فكان يراودنى الخوف كثيراً .. فكيف لإمرأة مثلى تجاوزت عمر التعليم أن تلتحق بالجامعة ! .. وأحتاج أيضاً للأموال حتى أستطيع أن أصل لما أحلم به .. فكلما فكرت فى التراجع عن ذلك ، كان هناك شيئاً ما بداخلى يزيدنى إصراراً على المضى فى نفس الطريق .. " ربما لأنه حلم لطالما روادنى " ..

إنه خيـط أمل يجب أن أتمسك به .. فذهبت للسيدة حكمت أطلب منها قبول عودتي للدار مرة أخرى والعمل فيها ..

- إندهشت من طلبى .. لماذا غيرتِ رأيك يا مريم؟! .. هل حدث شئ سئ أجبرك على العودة ؟

- رددت بإرتباك .. لن أخفى ما بداخلى لكِ سيدتى . فأنا أحتاج للمال حتى أستطيع مواصلة طريقي .. فأنتِ تعلمين ما تركته خلفى فى القرية وحضرت الى المدينة ، ولا أستطيع العودة له مرة أخرى ، فأنا أحتاج للعمل حتى أستطيع أن أكمل تعليمى الجامعى .

- ولكنك لستِ مجبرة على العمل مرة أخرى فى الدار .. هناك وظائف أخرى كثيرة ، ربما تشعرين فيها بالشغف أكثر من الدار ، فأنا أعلم بأنك لم يروق لكِ العمل هنا ، ولكنك كنتِ مرغمة على ذلك .

- والآن أنا مرغمة أيضاً ، فأنا لا أعرف غيرك فى تلك المدينة يا سيدتى .

إبتسمت .. ما رأيك فى العمل بالصحافة ؟ .. هل يروق لكِ ذلك ؟

فأجأنى حديثها .. وإتسعت عيناى دهشة .. فالصحافة ليست بالعمل الهين الذى يعمل به أشخاصاً عاديين .. ولكنها عمل راقى ويحتاج الى ثقافة مهنية كبيرة .. فمن أنا لأعمل فى هذا العمل ؟ .. رددت وأنا مطأطأة رأسى خجلاً ..

- لكنى لم أكمل تعليمى وأنتِ تعلمين ذلك !

لا تقلقى .. لى صديق صحفى سأخبره بما نريد ومنتظر رده .. لم تنتظر السيدة حكمت لليوم التالى لتخبر صديقها عنى .. وقد حضر السيد (فريد) سريعاً .. إنه رجل ستينى، وقور .. " ويبدو أنه يكن لها حباً عظيماً بداخله ، ولكنها لا تعلم بذلك " .. أخبرته السيدة حكمت بما أرغب فيه .. إعتقدت للوهلة الأولى بأنه سيرفض عملى معه بسبب عدم حصولى على شهادة جامعية .. ولكنه كان كريم معى كثيراً ..

إبتسم قائلاً .. سيكون عمك معنا بسيطاً للغاية وسأحدد لك راتب شهرى تستلميه مقدماً .. قابلينى غداً فى مكتبى لنحدد القسم الذى ستعملين فيه .

- نظرت له مندهشة .. هل سأستلم عملى غداً ؟

- بالطبع ، فحديث السيدة حكمت عن كتاباتك يكفى للعمل معنا .

ذهبت فى اليوم التالى لمقابلة السيد فريد .. كنت أسير بين غرف الجريدة بحذر وقلبى يخفق بشدة .. لم أكن أعلم بأن الجريدة عريقة هكذا .. العمل فيها قائم على قدم وساق .. أرى الصحفيين يجلسون فى كل مكان يعملون ، والعمال يسرون بين الغرف .. حين وصلت أمام غرفة السيد فريد شعرت بالتوتر بدأ يؤثر على جسدى ، فأصبحت أشعر بحرارة جسدى تسرى بداخلى .. دخلت المكتب وجدته فى إنتظارى " يا له من رجل طيب " .. جلست على المقعد المقابل لمكتبه وأنا أرتجف .. فتلك هى المرة الأولى التى أخرج فيها للعمل .. كان الخوف بداخلى يقابله شعوراً بالحماس .. أشعر بأن عالماً جديداً قد فتح أبوابه أمامى .. والنجاح سيكون حليفاً لى ما دمت سأخلص فى عملى .. هكذا إعتزمت أن أكون .. سألتى السيد فريد عن نوع

العمل الذى أشعر بشغف تجاهه .. تلجلجت وأنا أفكر .. فلم أفكر يوماً كيف ستكون طبيعة عملى إذا قررت العمل .

- لا أعلم يا سيدى .. فلتختار لى أنت ما يناسبنى .

- إذا العمل فى الرد على بريد قراء الجريدة يناسبك .

- وما هو نوع رسائلهم ؟

إنها رسائل خاصة بين قراء الجريدة وبين " رشاد " الصحفى الذى كان يرد عليهم ، فلا أحد منا يعلم ما تحويه تلك الرسائل .. فقد خلق بينه وبين القراء صداقة متينة .. ولكنه قرر السفر الى الخارج لظروف صحية .. هل تقبلين أن تعملين مكانه ؟

- بالطبع ، ولكن هل تعتقد بأننى سأنجح مثاماً نجح رشاد ؟

- أنا أثق بك كثيراً يا مريم .. فمن ذاق مرارة الألم هو الأجدر بأن يفهم مرارة غيره .. وهو أيضاً الأجدر بمساعدة غيره على تخطى ألمه .. فكونى قوية .. وأستعدى للعمل فوراً ، فمكتب رشاد متراكم بالرسائل .

كانت تلك الكلمات دافعاً قوياً لنجاحى .. ولكن خوفى من عدم قدرتى على النجاح كان قوياً أيضاً .. فطلبت من السيد فريد أن يمنحنى فرصة للعمل تحت إسم مستعار .. فقد إخترت هاتان

الحرفان (م . ح) للتوقيع على رسائل القراء ..

لم يمضى وقتاً طويلاً لى فى العمل وقد إكتسبت محبة القراء .. وبات الجميع يرغب فى معرفة من تكون صاحبة هاتان الحرفان .. أما أنا فلم يكن يشغل عقلى سوى النجاح فى العمل .. والإستعداد للجامعة ..

أتذكر إحدى الرسائل التى وصلتى من إحدى القراء تسألنى عن حياتى الشخصية .. كانت رسالتها قصيرة ومحددة ..

" من تكون يا ذو الأحرف الغامضة " ؟

ضحكت بشدة .. فيبدو أنها كان تعتقد بأننى رجل .. كان ردى حينها مختصراً أيضاً ..

" أنا شخص لا تغريه الأحاديث العشوائية "

لقد كان ردى غامضاً بالنسبة لها ، فبعثت لى برسالة أخرى زادت فيها الكلمات ، وكانت أكثر فضولاً ..

" لو لم تكن خائفاً من شئ ما ، لكنك أفصحت للقراء عن إسمك "

كانت رسالتها وكأنها رسالة خاصة لدواخلى .. فقد بلغت التساؤلات بداخلى حد الحلقوم ..

لقد هربت من ماضى .. تركت زوجى وعائلتى .. تتصلت من عاداتى .. تمردت على قوانين القرية .. نعم ، أنا هاربة من دواخلى .. هاربة من تلك الحياة الظالمة .. حاولت أن أطوى صفحات الماضى ولكنها أبت أن تطوى .. إنها تلاحقنى دوماً .. تؤلمنى بشدة .. لا تترك لى مجال لأتتنفس هواء الحرية .. ولكن هل سأظل هاربة ؟ .. هل سيمنحنى الله الطمأنينة يوماً ؟ ..

هل سأنجو من ملاحقة الماضي لى ؟ .. لا أعلم ما سيأتى ، ولكنى أعلم بأننى أغامر بلا شئ ..

فلن أخسر أكثر مما خسرت ..

أصبحت صديقة وفية للقراء .. يبعثون برسائل يومية بلا عدد .. فيمر الوقت سريعاً وأنا غارقة

بين رسائلهم .

اللوحة الخامسة

خطوت خطوتى الأولى نحو تحقيق أحلامى .. كانت سعادتى غامرة حين دخلت الجامعة للمرة الأولى .. أنظر لكل مكان فيها وكأننى شاهدته فى أحلامى سابقاً .. وبرغم سعادتى الا أننى كنت أتجنب النظر الى زملائى ، فعند النظر اليهم أشعر بأننى أصبحت أكبر سنأ من أن أسعى لإكمال تعليمى ..ولكنى أصبحت أؤمن بأن القدر يمكن أن يباغتنا بالسعادة .. فحققت حلمى بدخولى كلية الآداب وتخصصت فى فرع الفلسفة .. لا أعلم لما أحب هذا الفرع ؟ ، ربما لأننى أتمنى أن أتحدث عن نفسى ذات يوم .. وأسرد ما يدور بداخلى بدون خوف .. على الرغم أننى شخصية غريبة فى نظر زملائى ، فأنا فى نظرهم فتاة غامضة لا يعلمون عنى شئ؟؟ من أين أنا ؟ ولا كيف كانت حياتى قبل الجامعة ؟ .. كنت أنتظر إنتهاء محاضراتى لأغادر سريعاً وأعود للمنزل الذى يمر فيه الوقت ببطأ شديد .. كان يجب أن أجد حلاً لشعورى بالملل الذى ينتابنى بعد عودتى من الجامعة .. فقررت أن أكمل ما بدأت فى إحدى رواياتى .. حتى بات أبطالها مألوفين كثيراً لى .. فأجد نفسى فى بعض الأحيان أشتاق لأحد أبطالها وأنا بالجامعة ، ويذهب عقلى إليه واتسائل عنه ، ماذا سوف يفعل لاحقاً مع حبيبته ؟ .. هل ستركها ويرحل أم سيبذل على عهده معها ؟ ..

لاحظت أنى لم أكتب نهاية للكثير من الروايات .. ولا أعلم لماذا تهرب منى النهايات دائماً ! .. ولكن كل ما أصبحت أعرفه جيداً هو أن كتاباتى باتت جزءاً لا يتجزأ من حياتى .. فى المنزل والجامعة والكافيه الذى تعودت أن أذهب إليه حين أشعر بالملل من رتابة منزلى ..

لم أكن أنوى تكوين صداقات بالجامعة ، فقد كنت دائمة الهروب ممن يحاولون التقرب منى ، لم أكن أملك سبباً فى هروبي من الجميع سوى من خوفي من الإجابة على تساؤلاتهم عن حياتى .. فأنا امرأة تكره البوح بما تشعر به ، وما مرت به .. وقد سيطر خوفي على منذ اللحظة الأولى لدخولى الجامعة .. كنت كطفلة تتعلم الحديث لأول مرة مع الغرباء .. ردودى مختصرة وإجاباتى سطحية على من يطرح سؤالاً لى .. لكن تلك الحواجز ذابت تماماً حين تعرفت على صديقتى وفاء .. إنها لم تترك لى مجال للإبتعاد والهروب من أسئلتها ..

كانت تضحك كثيراً .. تضحك بلا أسباب .. لدرجة تجعل من ينظر لعينيها يضحك تلقائياً بلا أسباب أيضاً ..

كأنها كانت تعلم من أكون منذ دخولى للجامعة .. عند لقائى بها للمرة الأولى حدثتى وكأنها تعرفنى منذ ولدت .. لا أخفى أنها أرعبتني كثيراً حينها .. قالت وهى تنظر بعينى وتبتسم .. أعلم أنك هنا لتعوضين سنوات من الشقاء فى حياتك .. وأعلم أيضاً بأن بداخلك صندوقاً أسود يحتوى على الكثير من الذكريات المؤلمة .. أكملت مازحة :

هل ستفتحيه لى بإرادتك أم سأنتظر كثيراً لأفتحه أنا بنفسى ؟ ، وإعلمى أننى سأدهشك حين أخبرك بما يحتويه هذا الصندوق .

إستمعت لحديثها وأنا أرتجف ثم غادرتها .. لم تلتفت لى مرة أخرى لترى تعبيرات وجهى .. وفى لقائنا الثانى ذهبت إليها بإرادتى للتحدث معها ، ولم أستطيع السيطرة هذه المرة على الحواجز التى وضعتها بينى وبين الآخرين .. سألتها وأنا يغمرنى الفضول :

- كيف علمتى بما أخفيه بداخلى ؟

ضحكت بشدة .. الم يكن كلامى صحيحاً ؟

حاولت المراوغة وإخفاء التوتر الذى بدا واضحاً فى رجفة صوتى وانا أجيبها .. إنك غريبة حقاً ،

هل تقرئين الأفكار أم تشعرين بما يخفيه الأشخاص ؟

أجابت بهدوء شديد .. بل إن عيناك باحت لى بكل ما يخفيه قلبك من حزن ، فأنا استطيع أن

أشعر بحزن الآخرين حتى لو حاولوا إخفاء أحزانهم ..

حاولت أن لا أخذ كلامها بجدية مع إن تعبيرات وجهها جدية للغاية .. سألتها :

- وماذا إذا خانتك عيناك ولم تفهمنى جيداً ؟

- لم أخطأ يوماً فى فهم مشاعر الآخرين ، ولكن ربما أخطأت فى فهم الكلمات التى تحكيها

عيناك ، ولكننى لم أخطأ فى الشعور بحزنك الداخلى .. هل أنا مخطئة ؟

لم أستطيع إخفاء دهشتى بما تقوله ، ولا إخفاء ما أشعر به حين أخبرتنى بأنها ترى الحزن

متغلغلاً بعيناي .. كانت بداية صداقتنا غير عادية ، فلم أتوقع يوماً أن يكون لى صديقة لم

اترعرع معها منذ طفولتى ، ولم أتوقع أن يهدينى القدر صديقة تتفاعل معى ولم تشاركنى تفاصيل

طفولتى ومراهقتى وشبابى .. ولكنها شاركتنى سرد كل تلك التفاصيل خلال أربعة سنوات

بالجامعة .. شاركتنى ما تألمت منه ، وما كنت أشعر به فى كل عام من أعوام حياتى .. تغلغت

بداخلى وأخرجت منى الصندوق الأسود الذى أخفيت فيه كل معاناتى وشقائى وحتى أحلامى

وأمنيائى التى لم أحقق منها شيئاً .. بل أنها أيضاً صنعت معى أحلاماً جديدة ، وكأنها تكمل

معى بقية التفاصيل التى صنعتها معى ريم .. او إنها قررت أن تكمل معى الطريق الذى شاركتنى إياه صغيرتى ورحلت فى منتصفه .. فأصبحت وفاء بالنسبة لى الصديقة التى أبوح لها بما يؤلمنى دون الخوف من نظرتها لى .. أشاركها لحظات ضعفى دون الشعور بالدونية .. أتجرد من كل ما تسلحت به من قوة لأخرج للعالم معها فأشاركها هى ضعفى وخوفى ..

وشاركتنى هى عائلتها الصغيرة التى تتكون من والدتها وأخت واحدة متزوجة ومهاجرة .. لقد زادت مهمة جديدة فى قائمة مهماتى الأسبوعية ، وهى زيارة والدة وفاء وقضاء اليوم بكامله معهما .. كانت والدتها بمثابة والدتى التى بحثت عنها طويلاً ولم أجدها ..

مرت السنوات سريعاً وأنهيت جامعتى كما كنت أحلم دائماً ..

كانت وفاء قد إرتبطت بشاب من عائلتها خلال سنوات الجامعة .. أتذكر يوم زفافها .. حينها بكيت كثيراً إعتقاداً بأننى لن أستطيع رؤيتها او التحدث إليها كما تعودنا .. كانت والدتها تضحك بشدة وهى تشاهد دموعى تنهمر متتالية دون توقف وانا أودع وفاء وهى ترحل بسيارة زوجها ليلة زفافها .. ولكنها حاولت أن تطمأننى قائلة ..

- إبنتى العزيزة مريم ، الزواج ليس نهاية العالم وسوف تمر أيام قليلة وستعود لكِ صديقتك وفاء ، بل وستعود أيضاً الى حضنى .. فلتطمأنى إبنتى .

- أنا أشعر بالخوف كثيراً ، ماذا لو منعها زوجها من رؤيتنا ؟ .. لقد تألمت سابقاً كما تعلمين فى تجربة زواجى .. ولم أتعلم منه سوى أن بعض تجارب الزواج هى نهاية الأحلام .. وأن رجلاً فى حياتك لا يعنى سوى وجود الألم بحياتك يستطيع أن يقضى على أحلام زوجته إن أراد ذلك .

- لا تفكرين بأن كل رجال العالم يشـبـهـان والدك ومن كان زوجك يا أبنـتـى ، ربما يأتى يوماً
ويمنحك الله حبيب يعوضك عن كل ما تحملتيه بحياتك .

- لن أفتح قلبى للغرباء ، فكل الرجال متشابهون ، لن يقدمون لى سوى الألم .. ولكنى أدعو الله
دائماً بأن تعيش وفاء حياة سعيدة .

كان حديثنا قصيراً بينى وبين والدة وفاء .. ولكنى لم أستطيع نسيانه بعدها ، كان سؤالاً يلح
على عقلى كثيراً .. هل سيأتى يوماً وأفتح قلبى للـحـب ؟ .. تساءلت أيضاً ، بماذا يشعر العاشقان
؟ .. هل سأجرب هذه المشاعر التى كتبت عنها كثيراً فى رواياتى دون أن يدق لها قلبى يوماً ؟
..

أصبحت الأيام تمر ببطأ بعد انتهاء سنوات الجامعة وزواج وفاء .. قضيت أوقاتي بين كتابة
الروايات و الكافيه الذى تعودت مقاعده على .. حتى أصبح مدير الكافيه يعرفنى جيداً
وخصص لى طاولة .. وبات يعرفنى جميع العاملين ويلقبانى " بالكاتبة السرية " .. فكنت أجلس
دائماً صامتة .. حتى تعود أحد العاملين (كريم) أن يقف بجوارى دائماً وأنا أكتب .. ويقراً ما
أكتبه بشغف ويبتسم فى كل مرة قائلاً : (الكاتبة السرية) .. نظرت له فى إحدى المرات متعجبة
:

- سمعتك تتفوه بضع مرات بتلك الجملة .. ماذا تعنى ؟

- اقصـد بأنك روائية ، وتكتبين روايات تشبه روايات الف ليلة وليلة .. ولكنك تختطفين بهم
جميعاً كأنهم شرك الخاص الذى ترفضين خروجه للعلن .

إبتسمت : فهمت ما تقصده .. أنا لست كاتبة مشهورة ، ولم أفكر يوماً فى إستغلال ما أكتبه للنشر .. او أنه يصلح للنشر .

رد مازحاً .. هل تعلمين الغيب ؟

- بالطبع لا .

- إذا أطلقى العنان لعقلك بأن يتخيل كيف ستكون حياتك إذا أصبحت واحده من الروائيات المعروفات .

غادرنى .. وشردت أنا .. ماذا لو أصبحت إحداهن ؟ .. ماذا لو لإضطرت يوماً بأن أتحدث عن نفسى فى إحدى الندوات .. كيف أسير طريقاً كهذا لا أعلم ماذا سيكون مصيرى فيه .. هل ستقبل إحدى دور النشر ما أكتبه ! .. لا لا .. لن أفكر فى ذلك ، فأنا لا أصلح لذلك .. ولن أستطيع أن أخرج من قوقعتى للعلن .

كنت أكتب لنفسى او للتخلص من الملل الذى يحيط بى وسأظل أكتب لنفسى دائماً .. فالكتابة هى طريقي الوحيدة للثورة على كل العادات والتقاليد ، الثورة على ضعفى ، الثورة على الظلم فى العالم ، وأملى فى النجاة من ذكرياتى المؤلمة ..

لقد أصبحت الروايات التى أكتبها وأحتفظ بها فى مكتبى جزءاً من يومى .. أتطلع إليها يومياً ، أعيش مع أبطالها فيما يحدث لهم .. أتذكر أننى أحببت أحد أبطال روايتى وبات يتغير مزاجى بسببه .. أتناسى كل شئ من أجل أن أعيش معه فقط ..

تسائلت : كيف تخيلت بطلى هكذا ؟ .. كيف تصورته بهذا الكم من الطيبة ؟ .. فأنا لم أتعامل يوماً سوى مع أشباه الرجال .. فكيف تخيلت نفسى أعشق هذا الرجل الخيالى ! .. ربما أكتب عن نواقصى .. عن ما تحتاجه مشاعرى لتفويض بالسلام .. كان يجب أن أعافر حتى أتحرر من ما يؤلمنى .. كان يجب أن أجد طريقاً لأخرج من عنق زجاجة وضعتى فيها قدرى كما وضعه فيها والدى ووالدتى ..

كان طريق البحث عن والدى صعب .. فكلمنا وجدت مؤشراً لوجودها ، كان يخفى مرة أخرى ويصبح سراب .. فأصبحت أشعر بالقلق خوفاً من الرضوخ لليأس والإستسلام .. لا أرغب فى نسيان ما أقدمت للمدينة من أجله .. تمسكت بالأمل مجدداً حين أخبرنى أحد أصدقاء السيدة حكمت "يعمل صحافياً " بأنه يرغب فى تقديم أى مساعدة لها .. فطلبت منه أن يساعدى فى البحث عن والدى .. فقام بإطلاق حملة إعلانية بالجريدة التى يعمل فيها وكتب فيها طلب للبحث عن والدى وأرفق بها صورتها الوحيدة التى أمتلكها لها .. شعرت بالقلق وأنا أسلمه تلك الصورة .. فهى صورة قديمة لها وهى فى العشرين من عمرها .. مؤكداً أن ملامح وجهها تغيرت ..

أسلمه صورتها والكثير من التساؤلات فى رأسى .. ماذا لو لم تكن تقرأ الجرائد ؟ .. ماذا لو هاجرت لبلد آخر او فارقت الحياة وتركتنى بهذا العالم وحيدة ؟ .. لا أعلم هل ستكون رحلة بحثى طويلة ام لا .. ولكننى سأحاول .. فلم يتبقى لى غير هذا الأمل ..

لم تمر أياماً كثيرة بعد نشر صورتها ، فقد كنت أكثر حظاً مما توقعت ، فأخبرني أحد جيرانها بأنه يعلم بمكانها ولكنه حضر لمقابلتى بطلب منها ليتأكد من هويتي ..

عندما أخبرني الجار بأنه يعرفها ، لم أستطيع السيطرة على دقات قلبي حينها .. القيت عليه سيل من التساؤلات وأنا أكاد التقط أنفاسي .. سألته مراراً عن إسمها حتى أتأكد بأن القدر إبتسم لى أخيراً .. هل تغير شكلها ؟ .. هل أصبحت سمينة أم نحيفة ؟ .. هل ظهرت بوجهها تجاعيد ؟ .. أعلم إنها جميلة وبالتأكيد ظلت كذلك .. هل تزوجت ؟ .. صمتت لثواني ثم أكملت بنبرة يغمرها الألم .. هل تبتسم أم أصبحت تعيسة ؟ .

- ستجدين إجابات لكل تساؤلاتك عندما تقابلين والدتك .

حينها كان شعورى غريباً .. فقد كان حديث الجار مختصراً ومقتضباً ، وكأنه يخفى عنى شيئاً ما .. لكن لهفتى للقاء والدتي كان أقوى من أن أفكر فى شئ غير ذلك ..

حين شرعت فى مقابلة أمى ، لم أكرث لأى شئ ، ولم أخطط لأى سئ سوى أن تعانقنى فقط .. لم أكن أعلم بأن هناك ألم جديد ينتظرنى .. وجدتها تعيش بمنزل صغير .. تجلس فى غرفتها ، تنظر حولها بين الفينة والأخرى تتأمل فى اللاشئ .. وقفت أمام باب الغرفة أسترق النظر إليها من بعيد .. أتمعن فى تفاصيلها .. مازالت تحتفظ بلامحها الرقيقة ولكن قد ظهرت عليها علامات الشيخوخة .. أنظر لعينيها المكسوة بالتجاعيد ، لا يبدو عليهما السعادة ولا حتى الحزن ، وكأنهما فارغتان من كل شئ .. هرولت إليها مسرعة .. جلست تحت أقدامها وأنا أبكى .. لا أعلم هل أبكى للقاءى بها ، أم أبكى على ما عانيته بدونها .. ولكنى أشعر بأن قطعة من روحى قد عادت لى ..

أمسكت بيديها الممتلأت بخطوط الشيخوخة وأنا أنظر بعينيها .. أمى .. هل تعرفين من أكون ؟
.. أنا إبتك مريم يا أمى .. أنا إبتك الوحيدة وحبببة قلبك عدت إليك يا أمى .. أخيراً سنعيش
سويآ بدون ألم يا أمى .. لقد إشتقت إليك كثيراً وإشتقت للحظة عناك .. عانقيني يا أمى فأنا
تألمت كثيراً فى تلك الحياة بدونك ..

لم تبدى أى رد فعل تجاهى وكأنها لا ترانى .. تعجبت من رد فعلها فهى من أرسلت جارها للقاءى
.. فنظرت للجار مندهشة ..

- لماذا لا ترد والدتى علىّ ؟

- إنها لا تعرفك ، ولن تتعرف إليك يوماً ، فقد أصيبت

بالخرف منذ سنوات .

- كيف حدث ذلك ؟ .. ومع من كانت تعيش ؟ ، ومن كان يعتنى بها ؟

أخرجنى الجار من الغرفة ليسرد لى ما حدث معها كل تلك السنوات ..

لم أعرفك بنفسى منذ لقائنا .. أنا (رفيق) ابن عم والدتك ، لقد أوصانى عليها جدك رحمه الله
.. فوالدتك كانت تعانى من إضطرابات نفسية شديدة منذ عودتها من القرية .. كانت تصاب
بنوبات إكتئاب حادة، وتذكرك كثيراً كلما سنحت لنا الفرصة للحديث سويآ ..

- هل تزوجت من والدتى ؟

- بالطبع لا ..أنا متزوج وأعيش مع أبنائى وزوجتى .. ووالدتك بمثابة أخت لى .. لكنى أزورها
أحياناً عندما تكون طبيبتها غير متواجدة معها .. فقد خصصت لها طبيبة للإعتناء بها حتى لا

تعيش بمفردها .. قبل أن يتوفى جدك ترك إرثاً كبيراً لها ، أنفق عليها منه تحت وصايتي عليها .. بعد وفاته أصبحت حالة ليلى النفسية سيئة كثيراً لأنها كانت وحيدة بعد تخلي أخوتها عنها حين عادت من القرية وهي مدمرة .. فقد إعتقدت أخوتها بأنها خانت والدك بالفعل فتركوها وحيدة وهاجرا مرة أخرى ولم يسأل عنها أحداً منهما بعدها .. فأصبحت حالتها النفسية أسوأ بمرور الوقت حتى أصيبت بذلك المرض .. حين شاهدت إعلانك للبحث عنها فى الجريدة ، هرولت للقائك أملاً أن تكونى إبنتها بالفعل لتمكثين معها من أجل الإعتناء بها .. هل ستعودين للقرية مرة أخرى وتتركين والدتك ؟

شردت باكية .. أى قدر هذا الذى يؤلمنى هكذا ! .. لما لا تنبسم لى الحياة ولو مرة ؟ .. لقد عدت لك يا أمى ولكنك لم تعودى ..

- لن أتركها مرة أخرى حتى لو لم أشعر بوجودها .. فقدرنا واحد وطريقنا واحد .. عشت أنا أتلّم هناك وهى تشاركنى الألم هنا .. سنتجاوز كل ما مضى معاً ..

عدت لها مرة أخرى وجلست بجوارها أسرد عليها كل ما مضى من حياتى بتفاصيلها الدقيقة .. أفتح لها الصندوق الأسود بإرادتى ليرتاح قلبى حتى لو لن تسمعنى أو تجيبينى ..

- هل تتذكرين قرية الصناديلى يا أمى ؟ .. إنها تلك القرية التى تزوجتى فيها وأنجبتى إبتاك مريم .. هل تتذكرين إبتك الصغيرة مريم ؟ .. نظرت أمى نحوى ببراءة .. إنها لا تتذكر حتى إسمها .. فكيف ستتذكر إبنتها !

إنهمرت دموعى بلا إرادة منى .. لقد شعرت بأننى أصبحت وحيدة مرة أخرى ..

- لقد بحثت عنكِ يا أمي لأستقوى بكِ ، فأنا أدفع ثمن زواجك أنتِ ووالدي سنوات طويلة ، ولم تعد طاقتي تحتمل خذلاناً آخر .. فتلك العائلة لم تقتلني ، ولكنها سلبت مني كل ما أملك بتلك الحياة .. فأنا أيضاً هربت من تلك القرية ولكنني تركت خلفي طفولتي وشبابي وزواجاً هربت منه بعد أن خسرت روحى كلياً .. اليوم وجدتك لأتنفس من جديد .. بل لنتنفس سوياً من جديد .. لنجد مكاناً آمناً لنا فى هذا العالم .. لم تسع المدينة ولا القرية الآمى ، فكنت أتمنى أن يسعنى حضنك يا أمي .. لماذا تؤلمنى الحياة هكذا يا أمي ؟

أسندت رأسى على فخذيها وتمسكت بها وأنا أبكى بشدة وكأني عدت طفلة وأختبأ فيها من العالم .. ربتت على رأسى بعطف وكأنها أشفقت علىّ دون أن تعرف من أكون .. نظرت لوجهها وهي تبتسم بهدوء ، إنها تبتسم لى ! .. لقد إحتضنتنى إبتسامتك ولم أتمنى شيئاً آخر .. لقد تقبلت قدرى كما هو يا أمي .. سنعيش سوياً وسأنسى كل ماضىّ وأتجاوزه كما تجاوزتيه إنتِ ..

لا أعلم كيف غفوت بسهولة فى تلك الليلة .. فأنا لسنوات لا أستطيع النوم وأعانى من أرق شديد .. ولكن يبدو أنني لأول مرة أشعر بالأطمئنان .. مضت خمس ساعات وأنا مستلقية بجوار أمي فى فراشها .. حتى أيقظنى مذعورة فجأة صوت صراخها وتنفوه بكلمات مختلطة وغير مفهومة ..

- ماذا حدث يا أمي ؟ .. هل كنتِ تحلمين بكابوس ؟

ردت وهي فى حالة ذعر شديدة وتتلقت حولها يميناً ويساراً .. إنه سيقتلنى .. سوف يأخذ طفلتى منى .. إنهم موجودين فى كل مكان .

- من الذى سيقتلك ؟ .. لا يوجد غيرنا بالغرفة يا أمي .

- أنهم حولنا سيقتلونى أنا وطفلى الصغيرة .

صمتت لثوانى أحاول فيهم أن أفهم عن ماذا تتحدث .. حتى فهمت بأنها ربما تقصدنى أنا وهى .. ومن يريد إيذاءها هو والدى وعائلته .. لم أكن أدرك طبيعة مرضها وما تعانى منه .. حتى أدركت بأنها تتذكر أشياء من الماضى وتتسى أخرى .. حاولت تهدئتها بكل الطرق فطلبت منى أن أظل مستيقظة بجوارها ..

لا أعلم كيف تتصرف طبيبتها فى تلك الحالة ، ولم تكن متواجدة فى تلك الليلة الطويلة .. فجلست بجوارها أقرأ بعض آيات من القرآن حتى إستسلمت للنوم .. تأملت وجهها وهى نائمة .. لقد أغلقت عينيها عنوة لتساعد نفسها على النوم كالأطفال .. يا له من وجه يغمره الحزن .. كم تألمت يا أمى ؟ .. كم عانيت وحدك دون سند .. ليتنى هربت من تلك القرية وأنا طفلة وهرعت إليك ..

غلب النوم على .. وإستيقظت فى الصباح على صوت هاتفى يرن .. إنها وفاء تطلب منى مقابلتها .. فأخبرتها بأن والدتى بحاجة لى ، فلا يجب أن أتركها حتى عودة طبيبتها ..

حضرت وفاء لزيارتى ولم تكن تعلم بمرض والدتى ..

.كيف ستتنجزين عملك فى ظروف مرض والدتك تلك يا مريم ؟ .. أنتى تدركين جيداً بأن الكاتب

يجب أن يكون ذهنه صافى تماماً حتى يستطيع التركيز فيما يكتبه .!

– لا أعلم كيف ستمر الأيام يا وفاء .. كل ما أعلمه الآن هو أنى يجب أن أكون بجوار والدتى ، فأنتى تعلمين كيف عانيت من أجل لقائها .

— أتمنى أن يكون وجودها معك طاقة أمل جديدة تغير حياتك يا مريم .. فأنا أعلم بأنك تحتاجين لها حتى وهي مرضة هكذا .

لقد إعتقدت بأن وجود والدتي معي سيغير حياتي ، ولكنها لم تتغير كثيراً .. فكلانا تعلم الصمت لفترات طويلة خوفاً من التحدث عما يؤلمه أحياناً أرى الألم بعينيها تحتبس بداخلهما الدموع .. لا أعلم كيف أساعدها وأنا مثلها تماماً أشعر بأن ذكرياتي تلاحقني أينما ذهبت ... ولم تتغير الرتبة التي أشعر بها في المنزل ، بل زاد عليها صمت والدتي وشرودها الدائم .. فهي تعيش في عالمها الخاص ، "او ترغب في أن تعيش فيه بإرادتها" وأعيش أنا في عالمي الخاص بين أوراقى ورواياتى .. أكتب بشراسة لأتناسى بأن واحاً من أهم أحلامي قد تحطم .. فوالدتي التي عشت لسنوات طويلة أحلم بلقائها ، وأرغب في أن تكون سند لي ، باتت تحتاج الىّ لأساندها في مرضها .. أشعر أحياناً بأنى أنانية للحد الذي يجعلى أثور بداخلي على واقعى المرير .. أثور على سنوات مضت .. وسنوات لا أعلم كيف ستكون ..

لطالما أحببت سورة مريم فى القرآن الكريم .. كيف تحملت السيدة العذراء كل هذا الشقاء بمفردها ! .. كيف ساعدها الله فى أن تتحلى بالقوة لمواجهة ما كتبه لها .. كانت تتعبد لله وهى تتألم ، لا تعلم شيئاً فى الحياة سوى أن قدرها محتوم .. لم تكن تعلم بأن رحمها يحمل نبينا عيسى سلام الله عليه .. أشعر بأن من سبقونا كانوا أكثر منا صلابة أمام أقدارهم .. حين سمعت بأن " لكل منا نصيب من إسمه " ، كانت تسعدنى تلك الجملة حتى لو كانت مزيفة .. فياليتنى كنت أتحدى بجزء بسيط من ثبات وصبر السيدة العذراء ..

عندما قابلت عادل للمرة الأولى لم أكن أعلم بأننى سأقع فى عشقه .. لم أكن أعلم بأننى سأحتاج للصبر والقوة لأستطيع الهروب منه .. لم أكن أعلم بأن هروبي منه سيؤلمنى هكذا ! .. فعندما أخبرت صديقه آدم بأننى لا اليق به كحبيبة ، كنت أعلم جيداً بأن كل شئ سيقف فى طريقنا .. سيجتمع على فراقنا كل شئ فى الكون .. فهو رجلاً يمتلك كل شئ ، وأنا ينقصنى كل شئ .. أتذكر حديثنا يوماً كان ينظر لى نظرة طويلة وكأنه يتألمنى .. كنت أشعر حينها بالخجل الشديد ..

إبتسم إبتسامة عريضة :

- لم أتعرف يوماً على فتاة تمتلك كل هذا الخجل .. كلهن كانوا متشابهات فى جرأتهن .. إنتِ مختلفة كثيراً يا مريم .. مختلفة عنهن كفرق السماء بالأرض .. لا أعلم ما المميز فيكِ ؟ .. لكننى أعشق جميع تفاصيلك .. عيناك الواسعتان ، وشعرك المنسدل بإستقامة على ظهرك .. أعشق ملامحك البريئة برغم شراستك حين تغضبين .. أتعلمين ماذا أعشق فيكِ أيضاً ؟ إبتسمت .. هل هناك صفات أخرى ؟ .. أظن بأنك تبالغ كثيراً فى وصفك لى يا عادل .

- بل أبالغ فى عشقى لكِ .. فأنا أعشق فىك ما لا يمكن أن يحبه رجلاً غيرى .. أعشق كبرياتك الذى يجبرك على الهروب منى دائماً .

إرتبكت بشدة .. ولكن هروبى لم يكن بسبب كبرياتى يا عادل .

- وما سبب هروبك ؟

- نحن لم نكن يوماً متشابهان فى شىء .. فلكل منا عالمه الخاص الذى يتكتم على ما فيه .

- أتمنى أن يمنحنى الله فرصة وأدخل لعالمك المستتر خلف حصن منيع .. فلتطلبى أى شىء تتمنيه حتى لو بعيداً وألبيه لكِ يا مريم لأثبت كم أحبك .

- نظرت نحو السماء وأشرت له نحو نجمة بعيدة .. فلتجلب لى تلك النجمة البعيدة إذا .

- ضحك بشدة .. هل يمكن أن يجلب رجلاً النجوم لحبيبتة ؟ .. إنها من المعجزات ، وقد ولى هذا الزمن .

- نعم .. أنت محق .. فلن يجمع بيننا سوى معجزة .. وقد إنتهى هذا الزمن .

- رد بهدوء .. أنا لا أعلم ما تعانیه يا مريم .. ولا أعلم ما الذى يحول بينى وبينك .. ولكن أعلم جيداً بأن لو كان بإستطاعتك أن تكونى لى فستكونين .. ولكنى مطمئن بأن قلبك لى وهذا يكفينى .

- رددت بغصة .. أتمنى أن تدرك بأن ما يحول بيننا لن يمحوه حبك لى .. فما بيننا مسجون بداخل صندوق أسود أحمله بداخلى منذ خلقت .. فلا أحد يستطيع أن يخرج منى .

كانت تلك الكلمات آخر ما دار بيننا .. فقد قررت بعدها الهروب من عالمه حتى لا يعيش متأملاً في أن يجمعنا القدر .. ولكنني لم أستطيع إنتزاعه من داخلي .. لم يفارقتني حتى بعد أن فارقته أنا .. يعيش بداخلي كروحٍ أخرى تسكنني .. لم تمر لحظة في حياتي بدون أن أسمع صوته يتحدث معي ويطلب مني العودة .. وكل ما أملكه هو دعواتي له ..

أصلى في محرابي وكأنني أتعبد لله من أجله فقط .. أدعوا من أجله ولا أتذكر دعواتي لنفسى بما أتمناه .. أقوم بصلاتي كاملة ولكنى فى وادي غير وادي .. قلبى معه وعقلى ضائعاً بينه وبين صلواتي .. لا أعلم كيف أجتاز تلك المحنة التي أرى بي فيها قدرى ، ولا أعلم كيف سأنجو من ضياعى ، ولا أعلم كيف سأواجه ضميرى الذى يُعنفنى كلما دعوت الله من أجله وتناسيت نفسى ..

حين قال جلال الدين الرومى : يوماً ما سيأخذك قلبك لمن تحب ، وستتهدى روحك إليه .. فلا تستسلم فى غيابات الألم الحزين وإنه يوماً ما سيكون هذا الألم هو الدواء ، أنه صدق .. فقد أخذنى قلبى إليه .. وترابطت أرواحنا .. واعتنقته كعبادة .. فعشق ذلك الرجل يميّتى و يحينى .. ولكن ماذا عن الألم .. فأمرأة مثخنة بالألم مثلى كيف لها أن تتخلص منه بتلك السهولة !

كيف أتخلص من تفكيرى العالق به ؟ .. كيف أضع أمامه القوانين التي فرضت علىّ وأجبره أن يشاركنى تلك القوانين ؟

كيف أهوى به داخل سراديب روحى ، وأنا أخاف أن أمر من تلك السرايب صدفة ؟ ..

لقد حاولت الهروب منه مراراً ، حتى أصبح الهروب عادة من عاداتى .. والإبتعاد عن الناس هوايتى المفضلة التي باتت ترضينى أكثر من قراءة رواية أحبها .. لا أرد على هاتقى حين يرن

.. أهملت الكتابة التي أصبحت جزء من حياتي .. أقضى يومي وأنا صامتة .. لم تدوم
إبتسامتي معه طويلاً ، ولا إختفت مرارة أيامي .. ولا ضاعت من عقلي الذكريات .. فالقرية ومن
فيها مازلوا عالقين بي ..

أشعر بأنني مسلوبة الإرادة أمام ذلك القدر .. "أو ربما أسير مع ذلك القدر مسلوبة الإرادة كباقي
أقداري" ، ولكني للمرة الأولى أعشق قدرى برغم الألم .. أعشقه لمجرد أنه أحيا بداخلي الأمل ،
حتى برغم يأسى من الوصول لدعواتي .. أعشقه برغم صمتي وعدم قدرتي على البوح بما أريده
.. حتى لو تألمت منه ..

أصبحت رنة هاتفي تفتقني كثيراً ، فالسيد رياض يتصل يومياً ليعرف ماذا قررت .. فأنا منذ
أسابيع فى حالة صمت وكل ما يشغل تفكيرى ما طلبه منى السيد رياض ، أن أجد طريقة لأعلن
هويتي بها للصحفيين ؟ .. ولا هناك مجال أمامى للرفض .. فجميع العاملين بالدار ووفاء أيضاً
يرغبون فى أن أظهر هويتي للعلن وأتوقف عن الإختباء والتستر خلف هاتان الحرفان (م.ح)
هاتان الحرفان اللذان طُبعوا على جميع مؤلفاتى ورسائلى لقراء باب بريد الثلاثاء .. ويشدد على
السيد رياض انه يجب أن يزال الستار عن تلك الكاتبة الغامضة .. فقد مرت سنوات وأصبح
الكثير من قراء رواياتى يتسائلون من تكون كاتبة تلك الروايات ؟ .. فهو يعلم بأنى لا تستهوينى
الشهرة كما يلهث ورائها آخرون .. تلك كانت الأسباب التى أقولها للسيد رياض عندما يطلب منى

فى كل مرة أن أعلن عن هويتى لمحبينى من القراء وأن هذا من حقوقهم .. لكننى لم أفكر يوماً فى أن أكون بين صفوف المشاهير .. بل الأمر زاد تعقيداً ايضاً بعد أن جريت العشق لأول مرة فى حياتى .. فكيف أعلن هويتى ويعرف عادل من أكون ؟

لا يعلم كيف عشت .. وكيف عانت .. وكيف كانت طفولتى وشبابى .. لا يعلم أننى هى كاتبته المفضلة التى عشق حروفها وتمنى أن يقابلها صدفة ليعرف من تكون وكيف تكون ملامحها .. ولا يعلم اننى هى تلك الفتاة التى عشقها سراً وعلناً .. لا يعلم أنه ليس الرجل الوحيد الذى مر بحياتى ، ولكنه الرجل الوحيد الذى مر بقلبى وإستوطنه ..

كيف أخبره بكل ما ممرت به دون أن أخاف من نظرتة لى بعدها ! .. خوفى من مواجهته كانت أكبر من عشقى له ، فقد أجبرنى الخوف على الهروب الدائم منه .. واليوم يجبرنى أن أقرر ماذا سأفعل .. لم يترك لى القدر فرصة للأختيار بين الكثير من الحلول .. ولكنه ألقى بى بين خيارين كلاهما مر .. إما أن أعلن هويتى ، أو سيعلمها السيد رياض بنفسه ..

كان قرارى الأخير أن أهرب من مواجهة عادل .. إخترت الصمت بدلاً عن العودة مرة أخرى له ، فمسيرنا ليس واحداً ، ولم يُكتب لنا ان نكون كياناً واحداً ، أو هكذا كان إعتقادى أنا .. إخترت أن أعود للتوحد الذى كان يقتلنى ولكنه أهون من سرد حياتى بتفاصيلها للصحفين ولعادل .. ولكن قرارى سهل على السيد رياضوالجميع فقد أزعجهم كثيراً .. فعندما علم السيد رياض بقرارى .. بعث لى برسائل متتالية يحتثنى فيها على العدول عن قرارى .. وأن هذا القرار سوف يكبد دار النشر خسارة كبيرة ، وأن قرارى لم يكن منصفاً لى أيضاً ، وأننى سوف أخسر ما حققته من نجاح

.. ولكن قرارى كان حاسماً تلك المرة .. فأخبرت السيد رياض بأننى سأقبل أى خسارة مادية ومعنوية يلقيها على عاتقى .. ولكن لن أراجع عن قرارى ..

ولكن السيد رياض كان أكثر صرامة مما توقعت .. فقد عمل على تغيير كل القواعد التى وضعتها لحياتى .. أراد أن يخلصنى من ذلك الحمل الثقيل .. لم يتخذ لنفسه دور البطل أو صديقه فى روايتى .. ولكنه أختار دور الطبيب الذى يقوم بجراحة عاجلة لمريض ميؤوس من شفاؤه .. فهو يعلم بأن لا أحد قادر أن يجبرنى عن العدول عن قرارى سوى أن يضعنى القدر فى المحنة مرغمة .. فقرر السيد رياض أن يستأصل جذور الخوف والهروب من داخلى ..

بعث برسالة خاصة من مجهول مفادها " أعلم أن تعشق روايات الكاتبة (م . ح) ، فأردت أن أخبرك بأنها ستكون موجودة بدار الأصدقاء غداً ، إذا أردت أن تحضر حفل توقيع روايتها الجديدة "

حين شاهد عادل تلك الرسالة كانت دهشته تفوق سعادته بمقابلة كاتبته المفضلة .. فلا أحد يعلم بعشقه لروايات تلك الكاتبة سوى مريم وصديقه آدم فقط .. صاح لصديقه آدم قائلاً :

- لقد بعث لى شخص مجهول برسالة عن روائيتى المفضلة .. ولا أحد سوى أنت ومريم تعرفان هذا الأمر .. هل تمزح معى يا آدم !

- لا ، لم أمزح معك فى هذا يا عادل .. ربما تكون مريم هى من بعثت لك بتلك الرسالة

- إبتسم عادل إبتسامة عريضة .. هل تعتقد أنها عادت لى حقاً يا آدم ؟

- لا تخسر شئ إذا ذهبت فى الموعد فلن يكتب لك أحد اسم دار شهير هكذا الا إذا كان هناك شئ هام

إنتظر عادل لليوم التالى على الجمر .. فكلتا عشيقته يهمنه أمرهما .. فلطالما حلم بلقاء كاتبته المفضلة .. وتألم فى فراق الأخرى ..

لم يكتفى السيد رياض فقط بإخبار عادل عن مقابلتى فى دار النشر ، بل نظم مؤتمراً عاماً دعى فيه الصحفيين والسيد فريد والسيدة حكمت ، وكل من يرغب فى معرفة هوية الكاتبة السرية أن يحضر للدار للقائها .. خطط بإتقان ليَجبرنى على مواجهة العالم ..

ذهبت لمقابلة السيد رياض فى اليوم المحدد حسب طلبه منى بحجة أن ننهى بعض العقود بيننا .. ولم أكن أعلم بأنه مخططاً بأن يرغمنى أن أعلن هويتى للجميع و لعادل أيضاً .. كان الصحفيون ينتظرون خارج الدار ويقف بينهم عادل وتعلو وجهه نظرة قلق ، خوفاً من أن يكون الأمر مجرد مزحة من شخص غريب .. حين تقابلت عينانا مرة أخرى بعد غياب طويل .. شعرت بأن العالم قد توقفت حركته .. وبقينا أنا وهو فقط ننظر بعينا بعضنا مطولاً .. لم أسمع حينها أصوات الصحفيين الصاخبة وهمماتهم .. لم أرى هؤلاء القراء المتكدسين أمام الدار .. لم أرى سوى عادل ولم أسمع سوى صوته وهو ينادى بإسمى .. وقفت متحجرة أمامه لثوانى حتى إستوعبت بأنه هو .. حبيبى الذى غادرته ولكنه مازال ينتظرنى .. عشقى المستحيل .. شعرت بالإرتباك الشديد وأنا أحدثه :

- كيف علمت بوجودى هنا يا عادل !؟

- أين كنتِ يا مريم ؟ .. كيف تتركين عاشقك يموت بدونك ؟

- أخبرتك بأن بيننا ملايين الحواجز ، ولن يستطيع أحداً منا تخطيها يا عادل .

إقترب منى وكأنه يريد أن يعانقنى أمام الجميع .. أن يخبرهم بأننى حبيبته : لكننى أخبرتك أيضاً بأن تمنحني فرصة لأتخطى تلك الحواجز يا مريم .. أمنحني إياها الآن يا مريم .. وأمام الجميع .

تغرغرت عيناى بالدموع .. لا أعلم كيف أخبره بكل ما أخفيته عنه ؟ .. أبى كبريائى أن يضعف أمامه ، فما سيرفه عنى سيشحن قلبه بالبغض تجاهى ..

- يجب أن ترحل من هنا يا عادل .. فلن يكون بيننا رابط ذات يوم .

إستدرت لأدخل الدار وأتحدث مع السيد رياض عن ما يحدث .. فوجدته يخرج للصحفين ليعلن بأننى الروائية السرية التى إنتظرها الجميع .. هرول الصحفيون نحوى مسرعين ينهالون على بالاسئلة .. " من أنتِ .. لماذا لم تعلنى هويتك منذ سنوات .. هل تعيشين قصة حب .. هل أنتى متزوجة .. لم أسمع تهليلهم ولا حديثهم .. ولم أدلى وقتذاك بأى تصريحات خاصة بى فقد كان كل ما يشغلنى هو عادل الذى إنقلبت توقعاته حين علم بأن حبيبته الهاربة هى نفسها كاتبته التى تمنى مقابلتها ..

.. فهرولت مسرعة أبحث عن عادل هنا وهناك .. ولكنه رحل دون أن يتقوه بينت شفة .. رحل دون أن يخبرنى بما يجول بعقله تجاهى ماذا سيكون رد فعله ؟ .. كيف سيتخطى تلك الأكذوبة ؟ .. أنا حتماً فى نظره تلك الفتاة التى أضمرت هويتها عنه ، وأنا الفتاة التى أجبرته على أن يتألم فى رحيلها عنه .. كيف سأدافع عن نفسى ؟ .. وكيف سأجد عذراً يمحق ما سببته له من ألم ؟ ..

حتماً سيكرهنى ..

لم يكن يعينى غيره .. ولم أكن أرغب سوى فى قلبه .. فلم يحبني أحد كما أحبني هو .. ولم يتعلق قلبى بعشق أحد كما عشقه هو .. لماذا يؤلمنى قدرى الى هذا الحد ! .. لماذا يحرمنى من السعادة !

هكذا إنقطع خيط الأمل الوحيد الذى كان يبقينى أتنفس .. فأنا لست مختلفة كما كان يعتقد عادل ، بل أنا مثل جميع الفتيات .. فجميعنا نرغب أن يربط بيننا وبين الحياة قصة عشق نكون فيها كما نحن .. ببرائتنا التى لم يشوهها العابرون .. بطفولتنا التى لم تظهر سوى مع من نحب .. بالبريق الذى يغمر عيوننا حين نكون مع من نحب .. بإبتسامتنا البسيطة .. فقد خسرت كل هذا برحيل عادل ..

إقترب منى السيد رياض وربت على كنفى بهدوء محاولاً أن يخفف مما أشعر به من مشاعر مختلطة بين الخوف والصدمة والألم ..

- هل هو حبيبك الذى أضمرتى هويتك عن الجميع بسببه ؟

- لماذا فعلت ذلك سيدى ؟ ، الم تفكر بى ولو لثانية ، كيف سأواجهه بعد أن رحلت عنه فجأة ؟

- بل على العكس فقد فكرت فى أن المواجهة سوف تكسر حاجز الخوف الذى بناه عقلك ووضعته بينك وبين عالمك الخارجى .. الآن أنتِ مُجبرة أن تواجهيه يا مريم .. الآن يجب أن تواجهين الوحش الذى صنعتيه بنفسك وكبر حتى صار يخيفك الى هذا الحد .

- ولكنك لا تعلم الى أى مدى أخاف يا سيدى ، فأنا لم أصنع ذلك الوحش بنفسى ، بل صنعه الآخريين بداخلى حتى يظل يُخيفنى طوال حياتى ، وكأنهم أرادوا أن يظل خوفى الى الأبد .

- بل أنتِ سمحتى لهم بذلك .. واليوم يجب أن تصوغى لكِ قواعد جديدة لىسير على خطاها الباقيين ، اليوم سوف تعلنين عن هويتك للعالم وتبدأين بأولى خطواتك نحو الشهرة التى تنازلتى عنها للآخرين طويلاً .

- لم يبقى لى شئ يجعلنى مشدوهة للحياة يا سيدى .. فقد رحل عادل ورحلت معه أمنياتى فى البقاء .. فهو لم يكن جسد يعيش معى فى مكان واحد ، بل كان روح أخرى بجسدى .. أكتب له .. وأعيش لأنى أتنفسه فقط .. لم يتبقى لى سوى قوقعتى التى صنعتها لنفسى بعيداً عن كل الصراعات الدنيوية ..

عدت للمنزل وأنا أشعر باليأس .. أشعر بأننى أصبحت وحيدة .. أغلقت باب غرفتى بإحكام وقررت أن أنام أطول وقت حتى أهرب كعادتى من الواقع .. فقد أصبح الهروب إحدى وسائلى الممكنة للخلاص من الألم .. لنسيان العالم والولوج الى عالمى الخاص ..

إستيقظت فى صباح اليوم التالى وأنا فى حالة يأس شديدة .. مستلقية على مضجعى ، لا أرغب فى رؤية ضوء الشمس .. أنظر نحو هاتفى الذى لم يتوقف عن إصدار أصوات إتصالات

الصحفيين .. أغلقته متعمدة حتى أتخلص من الإزعاج .. أغمضت عيني مرة أخرى أحاول فيها النوم حتى لا أضطر للخروج من الغرفة .. لم تمر دقائق على غفوتي حتى سمعت خارج الغرفة أصوات صراخ والدتي والطبيبة المساعدة لها وأصوات صياح أشخاص لا أعرفهم بالخارج .. إعتقدت للوهلة الأولى بأن هناك دخلاء فى منزلى .. هرولت من غرفتى إليهما مسرعة .. وجدت والدى وزوجى قد باغتتنا .. ويمسكان بوالدتي وهى تصيح " أتركونى " وتقف طبيبتها فى إحدى زوايا الغرفة ترتعد خوفاً .. ويقف بضع من رجال العائلة منتشرين فى أرجاء المنزل ..

- صرخت خائفة مندهشة .. والدى ! .. كيف علمت بمكانى !

رد (بدر) عوضاً عن والدى الذى أمسك بيد والدتي بقوة .. وعيناه مكتظتان بالبغض :

لقد شاهدناك على إحدى القنوات .. شاهدنا عارك الذى هربتى من القرية لأجله .. هل هذا ما كنتِ ترغبين فيه ؟ أن يكون إسمك كالمضغة فى أفواه أهل القرية ؟ !

نظرت نحو عيناه اللتان أصبحا يتطاير منهما الشرر .. ومر فى رأسى فجأة شريط ذكرياتى معه ومع ولدى حين كانا يضربانى .. إرتعدت وتراجعت خطوات للخلف خوفاً من بطشهما .. وبدأت أتفوه بكلمات كاذبة حتى أنجو منهما ..

- أرجوك يا على أن تعذرني وتسامحنى .. لم أقصد أن أهرب منك ، ولكنى رحلت للبحث عن والدتي ..

ولكن والدى الذى تجاوز عمره الخمسين عام لم ينسى ما تركته له والدتي من إرث مكون من العار فقط .. فأمسك ذراعها بقوة .. وبدأ يوجه لها سيل من الكلمات التى أجبرتها على أن تتذكر بعض ما مر بها .. كنت أفء بعيد ولا أستطيع مساعدتها ولا الإقتراب منها ..

- لقد أصبحت إبنتك نسخة منك .. منذ ولادتها وأنا أعلم بأنها ستكون الضربة القاسمة لظهرى
بعد العار الذى لحق بى منك .. فقد هربت من زوجها كما هربت أنت .. كم رجل غير زوجها
قد ضاجعته فى تلك المدينة ؟ .. مع كم رجل قد خانتها كما خنتنى أنت ؟

كانت تتظر أمى نحوه بغرابة .. فهى لا تفهم ما يقوله ، ولا تعلم من يكون ، ولماذا يمسك بها ..
سألته بخوف :

- من أنت ؟! .. وماذا فعلت لك لتؤذنى ؟! .. أنا لا أعرفك .. ولم أنجب فتيات لأننى لم أتزوج
!.

نظر والدى نحوها مندهشاً ومعتقداً بأنها تنصت من أمومتها فجأة خوفاً منه ..

- اليوم تتصلين من أمومتك كما هربتى من زواجك .. تلك هى صفاتك ، وإبنتك ورثت جيناتك
.. فهى أيضاً هربت من زوجها مثلك .

نظر نحو (بدر) وطلب منه أن يأخذنا أنا ووالدتى الى سيارته ليعود جميعاً الى القرية .. إقتربت
منه أتوسله بأن لا يعيدنا الى القرية ..

- أستحلفك يا أبى الا تعيدنا الى القرية .. فوالدتى مريضة ويجب أن أكون الى جوارها هنا فى
المدينة من أجل زيارة الطبيب ..

لم يهتم بما أقوله .. فأمسك بيديها وبدأ يجرها عنوة وهى تمتنع عن السير .. وأمسك بنا
(بدر) حتى خرج الجميع من المنزل وبقيت الطيبة بمفردها ..

أعادنى القدر مرة أخرى الى الماضى .. لكن تلك المرة لم أكن بمفردى بل كانت والدتى معى ..
عدنا الى القرية التى هربنا من ظلم أهلها .. نسير فى شوارعها ونحن نشعر بالغربة .. فلم تكن
تلك القرية هى ملجأنا من الخوف ، بل كانت هى سبب خوفنا .. كان والدى و

(بدر) يسيران متجهين نحو بيت جدتى ونحن جميعاً نسير خلفه .. نظرت نحو أمى وأنا أراقب
دموعها التى تسيل بهدوء على وجهها .. إنها لا تدرك الى أين أخذها قدرها ولكنها تشعر بالخوف
.. تشعر بأنها لا تنتمى لهذا المكان ولا تنتمى لمن سكنوا فيه .. نظرت نحو بعينها وكأنها
طفلتى الصغيرة طلبت منى أمسك بيديها وأطمئنها بأنها ستكون بخير ..

أمسكت يدها بهدوء وهمست لها .. سنكون بخير أعدك بذلك يا أمى ..

إبتسمت وحركت رأسها وكأنها إطمئنت .. ولكنى أعلم بأن الخوف مازال يسكن بداخلها .. تنظر
حولها تشاهد أهل القرية يرمقونها بنظرات لا تفهمها .. يهتمون فيما بينهم بكلمات نكاد نسمع
بعضها ..

" إنها والدة مريم التى هربت من القرية منذ سنوات .. إنها زوجة حامد الأولى .. من تلك المرأة ؟
.. "

دخلنا بيت جدتى .. إنه مازال كما هو كئيب ويفتقر الى الدفأ .. وقد توفيت جدتى وتركت كل ما تملكه العائلة بيد زوجة والدى (أحلام) .. سار والدى متجهاً نحو (أحلام) التى كانت تجلس على مقعد جدتى " لقد أصبحت سيدة القرية عوضاً عن جدتى " .. هتف والدى ..

- لقد أحضرتهم الى القرية كما طلبت .. ماذا سنفعل بهما الآن ؟

إستقامت فى جلستها .. ونظرت نحوى بإستياء .. ثم أشارت نحو (بدر) ..

- فليأخذ (بدر) زوجته ويعيدها الى منزله .. ويطلب من زوجته الأخرى أن تعاملها بلطف .. هذا كل ما نستطيع أن نفعله معها .. ولزوجها الحرية فيما يفعله بها .

تطلعت نحو (بدر) مندهشة .. هل تزوج (بدر) من امرأة أخرى؟! .. إذا ، لماذا أعادنى مرة أخرى الى القرية !

إقترب والدى من أحلام وهو يهمس فى أذنها ..

وماذا سنفعل مع والدتها ؟

إبتسمت بخبث .. أنا أحتاج الى مساعدة فى أعمال المنزل .. فلتكن هى مساعدتى .

نظر والدى نحو (بدر) وطلب منه أن يذهب الى منزله وأنا معه .. صرخت .. لن أذهب معه الى مكان .. إنه ليس زوجى .. لن أترك أمى معكما هنا .. أتركونى معها أتوسل اليكم .. ما ذنبها فى كل هذا ؟ ..

لكن لم تنجح محاولتى معهم .. فقد تم زوجى قرار (أحلام) .. أعادنى مرغمة الى بيته الذى إمتلأ بأثاث زوجته (زينب) ، وأبنائهما الثلاثة الذين لم يتجاوز كبيرهم الخمس سنوات .. يلعبون

ويتقاذفون الكرة فيما بينهم .. تركنى معهم وغادر من البيت سريعاً .. رمقت البيت بنظرة خاطفة

أحاول إستعادة ذكراياتى فيه ، لم أجد سوى الذكريات الوئمة ..

نظرت زوجته نحوى بإبتسامة مسالمة .. ثم القت على السلام ..

أهلا بكِ يا أختى .. نورتى بيتك ..

إندهشت من سلاستها فى إستقبالى .. فقد إعتقدت بأنها ليست زوجته .. فكيف لزوجة أن تتقبل

إمرأة أخرى فى حياة زوجها !

ولكننى فهمت سريعاً بأن هذا الحدث طبيعى من سيدات تلك القرية ..

إقتربت منى لتعانقنى بلطف .. يبدو أنها " مغلوبة على أمرها مثل جميع النساء " .. عانقتنى

بشدة وكأنها تعرفنى منذ زمن .. صاحت بأولادها أيضاً ليبادلونى السلام .. إقترب منى الأولاد

على إستحياء .. وأمسك صغيرهم ذات العامان بيدي وإبتسم ببراءة ..

هل أنتى أمى الثانية التى أخبرتنا عنها والدتى ؟

نظرت نحو الزوجة بتعجب .. هل أخبرتى أولادك بأننى سأكون أما لهم !؟

ردت بإبتسامة بلهاء .. أجل : فقد علمت من (بدر) بأنه سحضرى الى هنا .. ويجب على

الأطفال إحترام زوجة والدهم ..

همست لها .. ولكننى لن أبقى هنا طويلاً .. ولن أكون زوجة ثانية لزوجك . فقد رحلت من هنا

منذ سنوات ولن أعود لما كنت عليه سابقاً .. وحقاً لا أعلم كيف تتحملين (بدر) بفضاظته

وقسوته !

- ردت بحزن شديد بدا واضحاً على وجهها .. أنا يتيمة الأبوين وليس لى أحد ألجأ اليه ، فقد إختارنى حامد لذلك تحديداً .. فهو يعلم بأننى لا أملك غيره ..

أشفقت عليها كثيراً ورغبت بأن أنقذها من براثن ذلك الأسد .. ولكن كيف أساعدها وأنا أحتاج لمن يساعدى حتى أتخلص مما وضعنى القدر فيه .. أدركت بأن جميع النساء فى تلك القرية مظلومات ومسلوبات الإرادة ..

إعتقدت بأن (بدر) أحضرنى الى بيته مرة أخرى حتى يعيدنى كزوجه له .. ولكن قد مر قرابة الأسبوع وهو يتجاهلنى .. ولا أعلم لماذا يتصرف هكذا ! ، بينما زوجته زينب كانت تتودد الى كثيراً حتى صارت بيننا صداقة .. فهى تقربت منى وأجبرتتى أن أتعاطف معها ..

حين شاهدت بدر وهو يعنفها أمام أطفالها فركضت نحوها أحميها من بطشه .. لا أدرى لماذا فعلت ذلك ؟ .. ولكنى شعرت بأنها امرأة ضعيفة وتحتاج لمن يساندها .. صارت بيننا صداقة بعد ذلك .. كنا نتحدث حديثاً مطولاً كلما سنحت لنا الفرصة ، عدا ذلك كانت تقضى معظم وقتها بين أعمال المنزل والأهتمام بأولادها .. وأقضى أنا وقتى بين الأوراق كعادتى أكتب ما يجول برأسى من أفكار ..

كان بداخلى شعور دائم بالقلق .. أفكر فى والدتى دوماً .. أتمنى لو أستطيع أن أكون معها .. جلست فى الشرفة أناجى الله .. وأدعوه بأن يحفظها لى .. بادرتتى (زينب) وقد أحضرت مقعد صغير لتجلس بجوارى ، سألتنى : هل تفكرين بوالدتك ؟

- أجل ، أفكر بها كثيراً .. هل تستطيعين مساعدتى فى أن أطمئن عليها ؟

- إطمأنى يا مريم ، سأذهب غداً لمنزل العمّة " نواهل " وأجلب لك أخبارها .

أتلجت صدرى بكلماتها .. وأزلت عن قلبى عبءً ثقياً عن قلبى .. سألتنى بإستحياء وكأن فضولها من يسأل :

- هل يمكن أن تخبرينى عن حياة المدينة .. هل هناك كل شىء مختلف عن هنا ؟

- إبتسمت .. أجل يا زينب .. كل شىء فى المدينة مميز .. يعيش سكانها بلا خوف .. تعيش المرأة حرة ليس عليها قيود .. تفعل ما يحلو لها .. تعمل وتتجح ويكون لها مكانة بين الرجال تجبرهم على إحترامها .

- هل وجدتى فرصة عمل هناك ؟

- أجل .. فقد أصبحت روائية ولى مقال يصدر يومياً فى إحدى الجرائد .

صمتت لبرهة ثم سألتنى .. هل تعتقدين بأن إمراة مثلى يمكن أن تعيش بمفردها فى المدينة ؟

- إندهشت لسؤالها .. لماذا تسألين ذلك السؤال ؟

- أجابت على سؤالى بسؤال آخر . هل مازلتِ تحبين بدر ؟

- أنا لم أحب بدر يوماً يا زينب ، بل تزوجته رغماً عنى .. لو أحببته ما كنت هربت منه .

- أعلم كل هذا يا مريم .. أنا لم أسألك بسبب شعورى بالغيرة عليه منك ، بل لأننى أريد أن أكون

قوية مثلك .. أنا أعيش مثل جميع النساء هنا فى القرية .. نعيش كساببا مع أزواجنا .. وأنا

أعيش مع بدر مرغمة أن أتقبل كل ما يمليه على من أوامر ويجب علىّ السمع والطاعة .. أشعر

أحياناً بأبنى تجردت من أنوثتى بسببه .. أتمنى لو كنت أملك الشجاعة مثلك لأرحل من هنا ..
ولكنى وحيدة تماماً .. الى أين سأذهب إذا رحلت ؟ .. كيف سأنفق على أولادى بدونه ؟

- فلتحررين نفسك يا زينب .. أنا مثلك تماماً لا أملك عائلة .. وعندما قررت الرحيل من هنا لم
أكن حينها أملك المال .. ولكن كان بداخلى قوة الهدف .. فكان هدفى هو البحث عن والدتى
.. أما أنتِ فقوتك ستكون رعاية أبنائك .

- ولكنك إبنة أكبر عائلة فى القرية ، بل والمتحكمين بها أيضاً .. أما أنا فيتيمة .

- رددت بغصة .. وبماذا إستفدت من تلك العائلة ! .. لقد حاربتنى تلك العائلة .. وأصبحت
خصماً لى .. أنتِ لا تعلمين كم عدد الأيام التى تألمت فيها من تلك العائلة .. فلتتحررين من
قيودك يا زينب .. إذا كنتِ تشعرين بأنك ترغبين فى ذلك .

- لن يتركنى بدر أرحل من هنا .. سيعيدنى الى هنا مرة أخرى كما أعادك .

- لكنى لن أظل هنا طويلاً .. سيحررنى الله لأننى أتق به كثيراً .. حينها سأحررك معى ..
وأحرر كل امرأة تعيش قهراً فى منزل زوجها .. أعدك بذلك .

- كيف ستفعلين كل ذلك ؟

- لن أفعل أى شىء .. فأنا لا أملك شىء سوى الدعاء .. فقط ثقى بالله .

تنهدت بهدوء وإبتسمت وكأنها أطمأنت بخلاصها من ألمها .. طمأنتها وأنا لا أعلم كيف
سأساعدها وأساعد نفسى ! .. ولكنى شعرت بأنها بحاجة للإطمئنان مثلى .. تحتاج لأن تجد
من يساعدها .. إن يكون سنداً لها .. ليحررها من طغيان زوجها ..

ذهبت زينب فى صباح اليوم التالى لتتقصى أخبار والدتى .. وعادت لتخبرنى .. حين شاهدت
وجها الشاحب وهى تلهث .. أدركت بأن هناك أمر سئ قد حدث كما توقعت .. سألتها بلهفة :

- لماذا تلهثين هكذا يا زينب ؟ .. هل حدث مكروه لوالدتى ؟

إنقطت أنفاسها بصعوبة وأجابت بإرتباك .. إطمأنى يا مريم والدتك بخير .. ولكن .. لكن ..
إنها تعمل خادمة للسيدة أحلام .

هلعت .. كيف تعمل خادمة ! .. إنها مريضة يا زينب .. كيف إنتزعت الرحمة من قلوبهم بتلك
السهولة !

هرولت لبيت جدتى .. شاهدت أحلام تجلس على مقعدها ، وتجلس والدتى تحت أقدامها ..
تصيح بوالدتى أن تدلك ساقها بلطف ..

ركضت نحو (أحلام) .. كيف تفعلين ذلك بوالدتى ! .. إنها مريضة وأنتِ تعلمين ذلك ..

أجابت بفضافة : كيف تجرؤين على محادثتى هكذا ؟ .. إننى زوجة والدك ؟ .. تصنعت البكاء
وهتفت بحامد :

أنقذنى من هؤلاء يا حامد .

ركض والدى مسرعاً نحوها متلهفاً : ماذا حدث ؟ .. ثم نظر نحوى بإمتعاض .. كيف خرجتِ
من بيت زوجك ؟

نظرت نحوه أستجدى عطفه لوالدتى .. كيف تسمح لها أن تجعل أمى خادمة لها يا والدى ؟

أجاب بشراسة .. العاهرات لا يعملن سوى خادمت .. فلتحمدي الله بأني قبلت بعودتها لبيتي مرة أخرى .. فقد رحمتها أحلام .

أمسكت بيد أمي واتجهت نحو الباب .. لن أترك والدتي هنا ، سنرحل مرة أخرى .

داهمني بدر الذي إتسعت عيناه وإمتلأت بالشر .. أمسك يدي بقسوة .. الى أين سترحلين ؟ .. هل تنوين الهروب مرة أخرى من الرية وتتركين لي عارك أعيش به ؟

أترك يدي يا بدر فأنا لم أكن لك زوجة يوماً .. ولن لأكون زوجة لك بعد اليوم .

لم ألبث أن أكمل حديثي حتى إنقض والدي وبدر بالضرب علينا .. لم أشعر في تلك اللحظات بالألم الجسدي الذي يلحق بي ، بل ما كان يهمني هو خوف والدتي وصراخها الذي ملأ المكان ، ونظرتها الممتلئة بالذعر وهي تتلقى الضرب من والدي زادني شعوراً بالألم .. تملصت من بين إيداي بدر .. وهرولت نحو والدي .. إستجمعت شجاعتى وأمسكت يده لأمنعه عن جلدتها ..

- لا يحق لك بأن تضربها ، فهي لم تعد زوجتك .. إضربني أنا ، وأتركها ، فهي عانت منك ومن عائلتك كثيراً يا والدي .. سأخرج من هنا معها ولن يمنعا أحداً منكم ..

فى هذه الغرف المظلمة التى أقضى فيها أيام ثقالم .. أروح وأغدو باحثاً عن النوافذ .. عندما تنفتح نافذه سيكون عزاء ..

لكن النوافذ لا أثر لها .. أو أنى غير قادر على أن أعثر عليها ..

تلك الكلمات البائسة للشاعر "قسطنطين كفافيس " .. تصف تماماً الظلام الذى بات يحيط بحياتى أنا وأمى .. لقد إنتصر والدى وزوجته وبدر علينا .. بل إنتصر الظلم على جميع الأتقياء .. فقد أعادوا والدى الى نفس المنزل الذى سُجنت به حين عاقبتها جدتى على تمردها .. لكنى تلك المرة شاركتها هذا السجن .. أشعر باليأس .. باليأس الشديد .. يتألم قلبى حين أنظر نحو أمى التى توقعت فى أحد أركان الغرفة خوفاً من بطش والدى لها .. أدين لكِ بالإعتذار يا أمى .. فلم أستطيع أن أفى بوعدى لكِ بأن أعتنى بك ، فقد تركتك بين أيديهم تعملين خادمة لهم .. ولم أفى بوعدى لزينب المسكينة ، أن أكون لها سنداً .. ولم أتطلى بالشجاعة لأعترف لعادل بماضى .. ولم أستطيع المكوث فى المدينة لأنتظر عودة ريم مرة أخرى .. ولم أكن كاتبة وفية لمن أحبوا كتاباتى .. لقد خسرت كل شىء يا أمى .. كل شىء .. لم أعد أرى غير الظلام .. وإفتقر قلبى للأمل ..

تلك الجمال المكتظة باليأس والقهر أكاد أسمع صداها فى كل مكان بالغرفة .. تفوهت بها ولم أكن أعلم بأن القدر يمكن أن يسعدنا كما يبكيها .. وأنه أحياناً يمنحنا أشخاص صالحين فى حياتنا على هيئة حدائق .. نكون نحن بذورهم .. نزرع فيهم الحب دون أن ندرك بأننا سنحصد ذلك الحب كالورود المزدهرة .. ولم أكن أدرك بأننى غرست بذور الحب فى قلوب الصالحين

الذين تعرفت عليهم فى المدينة .. ولم أدرك بأن تلك البذور ستزدهر وتنتير هذا الظلام .. فالظلام
ينيره الحب دائماً .. هكذا تخلص من ظلامى .. بالحب ..

حين غبت لأيام عن صديقتى وفاء ، فبحثت عنى فى كل مكان .. فأخبرت السيد رياض عن
إختفائى .. وإعتقدا بأننى تزوجت سرآ من عادل .. ولكن تقاجأ الجميع بأن لا أحد منهم يعلم أين
أختفيت أنا ووالدتى ؟ .. فأخبرتهم الطبيبة بما حدث معنا وقتذاك .. وبعودتنا للقريه مرة أخرى
..

أغمضت عيني لأهرب من الظلام .. كعادتى فى الهروب .. غفوت لساعات لا أعلم كم عددهم
.. أفاقت عيني ، أكاد أفتحهما بصعوبة على صياح وفاء ..

- إستيقظى يا مريم نحن جميعاً هنا .

لم يفيق علقى حينها بتلك السهولة حتى أستوعب بأن الجميع حضر من أجلى .. أعادت وفاء
حديثها ..

- مريم .. مريم .. هل تسمعين ما أقوله ؟ .. نحن جميعاً هنا .

بدأ علقى يستوعب بأن وفاء لم تكن وحدها أمام عيني .. بل حضر السيد رياض ، والسيدة
حكمت وزوجها السيد فريد " علمت بخبر زواجهما لاحقاً " .. نهضت من مضجعى وأنا أترنح ..
أمسكت بى وفاء والسيدة حكمت لمساندى .. سألتهم بذهول :

- كيف علمتم بمكانى ؟ ..

- أخبرتنا الطيبة بما حدث معك ووالدتك .. سنغادر من هنا .. والدتك تنتظرنا لنعود الى القاهرة

- ولكنى لن أغانر بدون زينب .

- ومن تكون زينب ؟

نظرت نحوهم مطأطأة رأسى خجلاً .. إنها زوجة بدر الثانية .

إندهش الجميع .. وكنت أعلم أنهم محقين لدهشتهم ..

- لقد وعدتها بأن أحررها من زواجها .. وستعود معنا الى القاهرة .

غادرنا القرية جميعاً ورافقتنا زينب وأبنائها .. "يبدو أنها طفح كيلها" .. لقد تصدت للمرة الأولى لبطش بدر لها أمام الجميع .. أبت أن يعاملها بقسوة أمامنا .. إستجمعت شجاعته ورحلت من القرية معنا .. "ولكنها لم تحصل على حريتها كما حصلت عليها قبل مغادرتى " .. ولكنى وعدتها بأن أساعدها أن تنال حريتها كاملة ، وأن نغير تلك العادات البالية ، وأن يعرف رجال القرية بقيمة نسائهم .

عدت الى القاهرة .. لوطنى الذى منحنى الحرية .. ولكن عقلى ظل مشغولاً بنساء القرية .. كيف سأساعدهن فى تغيير حياتهن المؤلمة !.

حين تحدثت مع السيد فريد عن تجهيز حملة صحافية وإعلامية كبيرة لمناهضة نساء القرية ، فما لبثت أن أنهى حديثى ، حتى أخبرنى بموافقته السريعة على ذلك ..

- ما رأيك أستاذ فريد أن ندعو أيضاً منظمات حقوق الإنسان وجميع المؤسسات التي تدافع عن حقوق المرأة ؟

- ستكون تلك الخطوة غير مسبوقه فى قرى مصر .. فجميع من تتحدثوا فى هذا الشأن لم يتطرقوا لأسماء القرى بشكل مباشر .

- لكنى سأطرق لأسم قرىتي " الصناديدى " بشكل مباشر يا أستاذى .. فأنا إنتمى لتلك القرية حتى لو حاولت الاتصال منها .. أعرف كيف تعاني النساء هناك .. وأعرف كيف يتألمن .

- إذا نجحت تلك الحملة فسوف تكون بداية طريقك الى عالم الصحافة يا مريم .. هل أنتى مستعدة لذلك ؟

إندهشت من حديثه فأنا لم أطمع يوماً فى منصب أو ترقية بل كل ما يشغلنى هن نساء القرية ..

- ولكن أنا لم أطلب منك مناصب فى الجريدة .

- منذ تعرفت عليك وأنا أعلم جيداً بأنك مميزة فى العمل الأدبى وسيعلو شأنك فى العالم الصحفى .. فضميرك حى .. وقلمك يتألم مثلك تماماً يا مريم .. هيا بنا نجهز عامود خاص بقضايا المرأة من خلالك .. ما رأيك ؟

- سيكون من دواعى سرورى يا أستاذى .. فأنا يهمنى كثيراً أن أساعدهن .

سعادتى كانت غامرة حين أخبرنى السيد فريد بصعودى سلم آخر فى العالم الصحفى .. لم أكن أفكر فيه يوماً .. ولم أعتقد يوماً بأن تلك القرية التى كانت سبباً فى ألى ، ستكون سبباً فى

نجاحى .. لم أتردد أن أعود للقرية مرة أخرى ولكن تلك المرة .. لم أعود إليها مرغمة ، بل عدت لها وأنا أحاول أن أرسم لها طريق جديد تسطع فيه شمس الحرية لكل امرأة مقهورة .. كان قدرى تلك المرة منصفاً لى ولجميع نساؤها .. توالت تقاريرى الصحفية عن نساء القرية فى العامود الخاص بى .. على أمل أن تساعدهم المؤسسات التى تعمل على حفظ حقوقهن .. فكانت كلماتى موجهة دائماً لتلك المؤسسات .. ولكنها أصبحت تصل لنساء القرية وزاد وعيهم عن حقوقهن المهذورة .. فقد أصبحن نساء القرية حديث وسائل الأعلام المختلفة ، ومنظمات حقوق الإنسان .. فأجبروا الرجال على تصحيح عاداتهم وقوانينهم البالية .. وتغيرت القوانين لصالح النساء وقتذاك ..

حين تجولت فى أرجاء القرية للمرة الأولى بعد رحيلى عنها .. كانت المرة الأولى التى أخطو فيها خطوات ثابتة وأنا أسير فى شوارعها .. شاهدت منزل جدتى ، يقف والدى خارجه .. نظرت نحوه فخورة بذاتى .. م تمنيت أن يفخر بى .. تمنيت أن أكون ابنة بارة به .. تمنيت أن يعانقنى ويبتسم لى وخبرنى بأنه سعيد من أجل نجاحى .. ولكنه أدار ظهره ورحل وكأنه يمقت ذلك النجاح .. يمقت أبوته لى .. وكأننى كنت سبباً فى إشاعة الفساد بين النساء .. ولكن النساء تجمعن حولى مؤيدين لى .. فمحو من داخلى القلق الذى تغلغل لقلبى عند رؤية والدى .. فقد شعرت لبرهة بأننى أخطأت حين حاولت إنصافهن ..

عدت لبيتى بعد يوم شاق فى القرية .. منقسم بين نساء القرية لسماع أحاديثن وشكواهن .. جلست بجوار والدتى التى مازالت لا تعرفنى .. ولكنها باتت تألفنى .. أمسكت يدها برفق ..

- لقد مرت الأيام الصعبة يا أمى .. سنبدأ سوياً سنوات جديدة من الأمل .. وسأعوضك عن كل ما مضى من ألم ..

ولجت زينب الى الغرفة .. جلست بخجل على المقعد المقابل لنا ..

- ماذا سيكون مصيرى انا وأبنائى بعد ما حدث يا مريم ؟ .. أنا خائفة .

إبتسمت بهدوء .. لا تخافى يا زينب أعلم بأنك لا يجوز أن تتركين أبنائك وتبحثين عن عمل .. ما رأيك أن تكونى مرافقة لأمى هنا معنا بالبيت ؟ .. وسأخصص لك دخل شهري بالمقابل لرعاية أبنائك .

زفرت بشدة .. لا أعلم كيف أرد لك الجميل ؟ .. ولكن أعدك بأن والدتك ستكون بمثابة أم لى .

— نحن أصبحنا عائلة واحدة .. وأبنائك هم أبنائى وسأظل مسئولة عنكم حتى تختارين الطريق الذى يناسبك .. أو تقررين العودة الى بدر مرة أخرى ولكن بعد أن يتعلم كيف يحافظ عليك .

" المرأة بلا محبة هى امرأة ميتة " .. مازالت كلمات أفلاطون هذه هى الأساس الراسخ لكل الروايات التى كتبتها .. فالحب الأفلاطونى هو الحب الأبقى .. يخلو من حب الجسد .. يخلو من الفراق بعد عناق .. إعتقدت أننى جربت ذلك النوع من الحب مع عادل .. لم تجمع بيننا لغة

الجسد .. بل جمع بيننا عشقاً روحياً .. ترابطت فيه أرواحنا وإندمجتا حتى أصبحا روحاً واحدة

..

فكانت محاولة رحيلي عن حياته قاسية على أرواحنا .. وكأنها تختنق ..

كانت مكالمتي له يوم قررت الرحيل تلك المرة خالية من كلمات الوداع خوفاً من أن يتمسك بي ..

خوفاً من أن تسيل دموعه مرة أخرى بسببي .. فرجلاً مثله لا يعرف الخوف ، كان قدره أن يكون

رحيلي عنه هو الشبح الوحيد الذى يخاف منه .. يخاف ان أتركه وحيداً فى الحياة ..

هذا الرجل الذى تتمناه جميع النساء ، كان يتألم لفقدان حبيبته .. يعلم بأن عشقها مازال ينتفض

له قلبه وعقله وجسده .. ولكنه يرفض فى كل مرة ان يبوح بما يخفيه من ألم ، فهو لم يبكى يوماً

على فراق امرأة ، ولن يسلم قلبه بتلك السهولة لها .. كان يتوقع بأنه يستطيع ان يلعب معها لعبة

النسيان ، وأنها ستكون مجرد ورقة يلقيها فى الهواء وتتناثر وهو يضحك .. لكنها مازالت بداخله

، فلا استطاع ان ينتزعها من داخله ، ولا استطاع ان يتناسى عشقه .. فقد أعتقد بأن قتل عشقها

فى قلبه سيعيد له الحياة .. ولكنه قُتل معها .. كان قلبه يرغب بها بشدة .. ولكنه قرر ان يحبها

بأقل مما تستحق .. قرر أن يدعش على قلبه حتى لا يعود إليها .. فقد رحلت عنه وتركته يتعذب

..

لإعتقدت بأن القدر لن يجمعنا مرة أخرى .. وأنه حين رحل بعد آخر لقاء بيننا ، فلن يعود ..

سيتناسى عشقه لى .. سينسى عاشقته الكاذبة .. ولكن القدر يفاجئنى دائماً بما لم أتوقعه ..

إتصل بي عادل ويتحدث بنبرة مقتضبة .. طلب منى أن نلتقى لنتحدث .. لم أفكر طويلاً فيما

سأواجهه فى ذلك اللقاء من عبارات اللوم .. حاولت كثيراً ترتيب أفكارى وإيجاد سبب أعلل به

رحيلى المفاجأ عنه ولكن دون جدوى .. فقد كان عقلى مشوشاً ورهبتى من مواجهته تشبه غريقاً
بعمق محيط ، لم يجد من ينجده فإستسلم لقدره ..

حين قابلته تمنيت أن أعانقه .. أن لا نتحدث ، لا نتعاتب ، لا نتقوه بكلمة .. فقط نتعانق .. لقد
إشتقته كثيراً .. كانت عيناه محذقتان بى .. صامتاً .. ينتظر أن أبدأ انا بالحديث ..
فإستجمعت قواى وبادرت أنا بالتحدث عن سبب إختفائى المفاجأ عنه .. وما لبثت أن أتحدث
حتى صاح بقسوة :

"كيف إستطعتى أن تخفى عنى كل تلك الكذبات ؟ .. من أنتِ حتى يلين قلبى لكِ وتقسين
عليه هكذا ! .. كيف ترفضين حبى لكِ وترحلين دون عذر يحو كل ما مررت به من ألم !
.."

تلك الكلمات كانت على شفاه عادل حين قرر أن يثور على عشقه لى .. أن يتمرد على قلبه
الذى خانته وإختار أن يعود لى مرة أخرى .. كان صمتى رداً بارداً على ثورته .. فزادت ثورته ..
إنه يحاول أن ينتزع كبريائى ليعيد كبريائه .. لكنه لا يدرك بأن كبريائى قد ضاع فى عشقه ..
أنى حطمت من أجلك الحواجز والأسوار التى أسستها حولى خوفاً من إقتراب الغرباء .. إنه
كيانى .. ثورتى .. وتمردى على كل شئ .. ذاب قلبى ضد كبريائى فإخترت أن أسير ضد التيار
لأكون معه ..

- أنت لا تعلم كم الألم الذى تألمته حين قررت أن أرحل بلا مقدمات ، ولكن كل ما فكرت به
هو أن أتركك لتتنفس بلا قيود ، تركتك خوفاً ان أكون عبئاً يؤلمك يوماً ما ..

- رد بحدة محاولاً الا تؤلمنى قسوة كلماته ، ربما لأنه يشعر بألمى دون أن أتحدث كما تعودنا ..
فكلانا يشعر بالأخر دون أن يتقوه ببنت شفه ..

- رحيلك كان يؤلمنى أكثر ، وبأن أنفاسى لم تتحمل ، وبدونك كنت أشعر بالضياح كطفل يبحث عن أمه بكل مكان .. كنت مشوشاً ومشوهاً من داخلى .. حاولت إنتزاعك من داخلى مراراً ولكن دون جدوى وكان ذلك يؤلمنى أكثر .. كان ألمى أقوى من أن أتحملة بأصبت به كل من كان يقترب منى .. لقد عاشرت الكثيرات من النساء وقت غيابك عقاباً لك ، لكى أوكد لنفسى بأنك لا شئ بالنسبة لى .. ولكننى كنت أبصرك فيهن جميعاً .. كانت أعين بعضهن تحدثنى بأن لا ذنب لهن بعقابى هذا ، ولكننى كنت كوحشاً يريد أن يقتص من جميع النساء إنتقاماً منك أنت يا مريم .. ولكننى فى كل مرة أكتشف أننى أعاقب نفسى بك .. فقد أصبح عشقك يحتلنى .. فكيف إستطعت الرحيل بتلك السهولة يا مريم ؟ .. ليتنى كنت قوياً مثلك لأرحل .

- أخبرتك مراراً بأن القدر أقوى منى ، ولن أكون تلك الفتاة التى تتمناها يا عادل .. لقد إختلقت مئات الكذبات حتى لا يميل قلبى إليك .. حتى لا أقع فى عشقك .. حينها لم أجرو أن أمحو حاجز الكبرياء بيننا وأكشف أمامك ضعفى .. كيف أسرد لك قصة خذلانى من والدى وعائلته .. أو أصف لك كيف خارت قواى أمام مرض والدتى .. أو كيف تخلّى عنى الجميع .. حاولت الرحيل حتى لا أشعر بالضعف وأعود لسنوات لم أجنى منها سوى علامات العنف التى مازالت موشومة على جسدى ..

- كيف ستظل عاشقاً لقلب هو ملك لغيرك ! .. لقد تمنيت فى لحظات ضعفى أن ترحل أنت عنى وتحطم قلبى ، حتى لا أرحل أنا وتتألم أنت .. ليتنى لم اتعود على السعادة وانا اتحدث

اليك يا عادل .. ليتنا تقابلنا فى أزمنة أخرى .. ليتك أجبرتني أن أعاهدك على البقاء .. فقد أصابتنى معك لعنة العشق كما كنت أصفها لك دائماً .. فهذا قدرى أجبرنى أن أعشقتك ، وأنا أعيش بلا جدوى ولا أمل فى الحياة ..

لقد تعودت ان تبحث عنى ، بينما أنا أبحث عن قدرٍ يمنحنى السعادة والأمل الذى فقدته منذ خلقت ..

- وما ذنب قلبى أنا يا مريم ليقع فى عشق قلب جبان إختار الهروب ولم يحارب من أجلى ؟ .. لقد إخترت أن أخوض من أجلك مئات المعارك .. وأشرس المعارك تلك التى خضتها أمام قلبى .. فقد حاولت مراراً أن أعتاله حتى لا يعود إليك .. ولكنه إنتصر على وإختار عشقتك .

- لم يكن ذنبك أو ذنبى يا عادل .. هو قدرنا .. فقد أجبرتني أن أواجه ما كنت أخشاه لسنوات طويلة .. كنت أعيش فى عالمى الخاص .. عالم لا يعلم عن الحب شئ .. وأنا لطالما إبتعدت عن كل الرجال خوفاً على قلبى .. فقد تألم قلبى من رجال لا يدركون معانى للرحمة ، ولكنك علمتنى أن أعشقتك ، شعرت بأننى خلقت من جديد كطفلة نسيت كل ما عانته ، وأصبحت متعطشة للعشق .. أن تمحو كل ما مضى وتخطو خطوات جديدة نحو الأمل .. عشقتك لى هو القوة التى تسلحت بها لأنتصر فى جميع معاركى .

مضت ساعات لا أعرف عددهم ونحن نتحدث ، نتعاتب .. نلقى اللوم على بعضنا .. نسرد لبعضنا قصصاً عشناها وألم مازال أثره بداخل كلاً منا .. ننهار بكاء أحياناً .. فقد كان ألم فراقنا كان سبباً فى فتح الكثير من الألام التى أخفاها بداخله هو أيضاً لسنوات .. أدركت بأننا متشابهان فيما نعانى منه بإختلاف أسباب الألم والأشخاص والأحداث ، ولكن لم يستطيع كلانا

نسيان ألمه او إخراجهم من الصندوق الأسود بداخله .. كان قراره بأن نتناسى كل ما مضى مفاجأة لى .. زادنى خوفاً من المجهول .. فهل قرر قدرى أن يمنحنى فرصة أخرى نحو السعادة بتلك السهولة ! .. ولكن عادل لم يترك لى مجالاً للتفكير طويلاً ، باغتتى سريعاً دون تردد ..

- مريم .. يجب أن تقررين هل ترغبين فى الزواج بى ؟ .. ان نكون قلباً واحداً ، وأن نواجه هذا العالم سوياً .

خفق قلبى سريعاً ، ودرات فى رأسى العديد من الأسئلة .. هل يمكن أن أكون جزءاً من عائلته التى لا تعرف من أكون ؟ .. كيف سأواجه عائلته وأنا أعلم جيداً بأن الفروق بيننا شاسعة .. كيف ستتقبلنى عائلته التى طالما تمننت له الزواج من ابنة عمه التى لا ينقصها سوى أن يكون عادل زوجاً لها ! أعلم أننى لن أستطيع أن أبدأ معركة أخرى فى تلك الحياة .. فأنا لا أملك من القوة ما يكفى لخوضها .. انا منهكة داخلياً من خوض الآف المعارك التى لا تزال آثارها داخل جسدى وروحى ! .. ربما لم أخطط يوماً لتلك المعركة .. ولكنى سأخوضها بكل ما أوتيت من قوة .. فقوتى التى أمتلكها هى العشق الذى أنار لى طريقاً جديداً لأسير بخطى ثابتة .. فكيف أفلت يدي من يد مُدّت لى ومنحتى تلك القوة ! ..

حين تزوجت بدر لم أكن أدرك بأن ذلك الرباط المقدس يجب أن يجمع بين عاشقان .. أدركت بأن قلوبنا تلتقى مع من يشبهها .. من يقاسمها الألم قبل السعادة .. من يفهمها .. هكذا كان الرباط بينى وبين عادل .. تقاسمنا ألم الماضى وألم الفراق وتقاسمنا أحلامنا .. وأصبحنا نتقاسم مستقبلنا ..

تلك هى للمرة الأولى التى أشعر فيها بمشاعر مختلطة ، ما بين الخوف والقلق والسعادة والإرتباك الشديد .. تلك المشاعر التى أشعر بها للمرة الأولى ، وكأننى أعيش مرافقتى لأول مرة .. كل ما أشعر به له بريق خاص .. وكأن الشمس فى ذلك اليوم أشرقت لى أنا وحدى .. شاركتنى وفاء كعادتها ذلك اليوم الخاص .. شاركتنى خوفى وقلقى ..

- هيا يا مريم .. لم يتبقى لديك وقت كافى لتتزينين .

زفرت بقوة وأنا ألقى بملابسى على المقعد : لقد إحترت يا وفاء ، ماذا أرتدى من هؤلاء .. فالיום يجب أن أرتدى ثياب أنيقة تناسب عائلة عادل .. فأنتِ تعلمين أننى سأقابلهم للمرة الأولى .

ضحكت وفاء بشدة : ولماذا كل تلك الحيرة يا مريم .. أنتِ جميلة فى كل حالاتك يا عزيزتى .. فقط إرتدى ما تشعرين بأنه يناسبك أنتِ وليس هم .

- أنتِ محقة .. إذا سأرتدى ذلك الفستان الأسود .. لقد أحبه عادل حين كنا مدعوان على زفاف أحد أصدقائه .

وقفت أمام المرآة قرابة الساعة أحاول أن أختار تصفيفة شعر مناسبة .. إتصل بى عادل فى تلك الساعة أكثر من مرة " كان متوتراً أكثر منى " ، يحاول فى كل مرة أن يطمئننى بأن كل شئ سيكون بخير ، ولكننى أشعر بأنه يبدو خائفاً أكثر منى ..

خرجت من المنزل مسرعة .. وجدت عادل ينتظرني بسيارته الفارهة .. حين شاهدتها إتسعت
عيناى .. حدقت بها لبرهة ..

ضحك عادل مازحاً : ماذا بك يا مريم .. هل أعجبتك سيارتى أكثر من تلك البدلة الأنيقة التى
أرتديها !

- رددت بقلق : هل هذه سيارتك ؟

- أجل .. لما كل هذا القلق يا مريم ؟

- لم أكن أعلم بأنك ثرى لهذه الدرجة يا عادل !

إقترب منى بهدوء .. عائلتى ثرية .. لكنى شخصاً عادياً عشق أديبته المفضلة .

كان يحاول عادل أن يقلل من حدة قلقي .. ولكنه لم يستطيع أن يمحيه بالكامل .. فحين شاهدت
قصر عائلته الفخم الذى يشبه قصور الملوك .. يمتلئ القصر بالعديد من التحف الأثرية الأصلية
، وكان كل قطعة فيهم مأخوذة من متحف خاص ..

- همهمت : يا له من قصر كبير ، إنه أكبر مما توقعت .

- سألتى عادل مبتسماً : هل تتحدثين عن القصر ؟

- إبتسمت خجلاً ، كيف قرأت أفكارى ؟

- أعلم إنه كبير للغاية ولكنه لم يكن يوماً سبباً فى سعادتى ، ولا حتى من يسكنون فيه .. لطالما
حلمت بأن أمتلك بيتاً صغيراً ولكن مع عائلة تهتم بى وبما أريد وليس بما يريدان هم .. وأنا مع
أمتك ما أريده يا مريم وهذا يكفى ..

أمسك يدي براحة يحاول طمأنتي .. كانت عيناه مغمورتان بنظرات الفخر ونحن نسير داخل القصر متجهين نحو والدته التي لم تقف في إستقبالنا .. كانت تجلس في إنتظارنا حول طاولة العشاء .. لم تلتفت لنا .. بل تنظر بإستياء نحو العاملين بالقصر ..

القينا عليها التحية .. ردت ببرود شديد ، وأشارت لنا بالجلوس .. جلسنا حول الطاولة في صمت لم يسمع لنا غير أصوات الملاعق تتازع الأطباق .. يمر الوقت ببطأ شديد وملل .. ينظر بعضنا لبعض خلسة في صمت .. أما والدته فكانت ترمقني بنظراتها ، وكأنها تسألني من أنتِ ؟ كيف إستطعتي سرقة قلب أبني بتلك السهولة ! .. فقد ظلت والدته طوال جلستنا نتحدث عن شجرة عائلتها الأرستقراطية ، وعائلة والد عادل الذين تمتد عروقهم للملوك ..

- سألتني فجأة : هل عائلتك يعيشون بمصر أم في إحدى الدول الغربية ؟ .. فقد أخبرني عادل بأنك كاتبة مشهورة ولكنك أخفيتي هويتك لسنوات ..

حاولت أن الا أكشف لها التوتر الذي زلزلني من حديثها .. وأجبتها بثبات مصطنع :

- ربما لم تمتد جذور عائلتي للملوك ، وربما أيضاً تفرقت عائلتي ، ولكن عادل أصبح كل ما أملك في تلك الحياة ، مثلما كان في حياتك أيضاً ؟

لا أعلم لماذا كانت كلماتي قاسية عليها ، فقد نهضت السيدة (سوزان) فجأة .. وأخبرتنا بحدة شديدة بأن جلستنا قد إنتهت ولنا لقاءً آخر لاحقاً ..

فقد أثار تصرفها دهشة عادل ، وظن بأنني لم أروق لها ، وأنها ترفضني كجزء من عائلتهم ..

سألها سريعاً عن سبب تصرفها ، فبررت تصرفها بأنها شعرت بالألم فى رأسها فجأة ، وأنها تنتظرنا بموعد آخر سوف تحدده لاحقاً .. غادرت القصر وأنا اتسائل : ما الذى أزعجها لهذه الدرجة ! ..

لاحظت شرود عادل وأنه لم يتقوه بينت شفاه ، وهذا أيضاً آثار فضولى ، فأنا لم أعتاد على صمته لمدة طويلة بقدر ما كان يتحدث طوال الوقت عن نفسه ومشاعره .. وكانت ملامح وجهه عابسة بدون أسباب .. لم أستطيع السيطرة على فضولى فى معرفة ما يزعجه ..

سألته مباشرة عن سبب عبوس وجهه ؟ ..

- عن ماذا كات حديثك مع والدتى ؟

- ليس هناك شيئاً هام ، لقد دار بيننا حديثاً عابراً .. فقط أخبرتها بأنك كل ما أملك فى تلك الحياة القاسية ، وأنها بالتأكيد تشعر أنك هكذا أيضاً بالنسبة لها .. فأنت بالتأكيد جزءاً هاماً من حياتها .

ولكننى لست هكذا بالنسبة لها يا مريم ، ولم أكون يوماً شيئاً هاماً لها .. أتعلمين لماذا أخبرتك يوماً بأنك عائلتى الوحيدة بهذه الحياة ؟ .. لأننى خسرت عائلتى منذ هروبى من هذا القصر الكبير .. لقد إعتقدت بأن ثروات تلك العائلة لى فقط .. لتكون حصناً لى من غدر هذا الزمن .. ولكننى علمت بأن تلك الثروات لتعيش هى حياة كريمة .. لا أتذكر متى آخر مرة عانقتنى أمى وسألتنى عن حالى .. كنت أهرب من الألم الذى أشعر به من لامبالاتها تجاهى بالخمير .. والتمتع بمعاونة الفتيات حين يتعذبن من رفضى لهن ، ولكننى كنت مدرك بأن ما أفعله بهن ليس فيه رحمة .. ولكنك دخلتى لعالمى الخاص تعلمت منك الحب والرحمة ، فأصبحت أجساد النساء

لا تغرينى بعد أن إمتلأ قلبي بعشقتك .. وكلماتك تغنينى عن كأس الخمر الذى كنت أهرب به من الألم .. فأصبحت سعادتى مرتبطة بإبتسامتك أنتِ ، ووجودك فى حياتى ليس له بديل .. وهذا ما شعرت أُمى بالألم بسببه ، لأنها تعلم بأن دور الأم فى حياتى لا يناسبها ، وبأن فتاة لا تعرفها مسبقاً إستطاعت أن تملأ ذلك الفراغ الذى لم تستطيع هى ملأه .. انا بحاجة اليك يا مريم .. هل ستتخلين عنى يوماً ؟ ..

كان يسألنى وكأنه يعلم بأن القدر ربما يفرقنا مرة أخرى .. وأنه لا يستطيع تحمل المزيد من الألم .. فأجبتة بحسم :

انا خسرت الكثير من المعارك فى حياتى يا عادل ، ربما لم أحارب بما يكفى لكسب إحداهم ، وربما فى وقتها لم اكن أمتلك القوة لأنتصر فيهم ..ولكن اليوم أنا معركتى بينى وبين ذاتى .. فأنا أو من بأنك روحاً تسكن روحى ، وعشقتك هو الشعور الوحيد الذى أبقانى على قيد الحياة .. فمعركتى لن أتركها لغيرى يفوز بها .. و سأدافع عن الشئ الذى أملكه لأول مرة بدون تردد أو خوف .

إتصل بى السيد رياض يخبرنى بأنه لن يستطيع طباعة روايتى الأخيرة .. إندهشت :

- لماذا ؟ .. ماذا حدث يا أستاذى ، هل أخطأت معك بشئ ما ؟

رد بحزن شديد .. ليس الأمر ببديء يا مريم ، فهناك شيئاً ما يحدث ولا أعلم من المتسبب فيه ..
فقد إختلق أحدهم كذبة ، بأنى أقوم بطباعة كتباً سياسية فى دار النشر ، وأنتِ تعلمين بأن هذا
ليس صحيحاً .. ولذلك لن أستطيع أن أطبع كتباً جديدة الدار لفترة حتى ينتهى الأمر .

- ولكن يجب أن نبحث عن المتسبب فى ذلك ، ربما له هدفاً دنيئاً تجاهك ، هل يمكن أن يكون
إحدى منافسيك ؟

- لا يمكن هذا ، فأنا أعمل منذ عشرات السنوات والجميع يعلمون بنزاهتى وليس لدى أعداء ..
ولكنى سأحاول جاهداً فى معرفة من المتسبب فى ذلك وما هو هدفه ، وسوف أخبرك بما
توصلت إليه لاحقاً .

لم يقلقنى توقف طبع روايتى ، ولكن شعورى بالحزن مما أصاب السيد رياض كان أشد ألماً ..
فهو الأب الروحى بالنسبة لى ، فقد ساعدنى لسنوات حتى أصبحت تلك الأديبة التى يتحدث
الجميع عنها .. فكرت طويلاً كيف أساعده ؟ .. لم تمضى ساعات حتى زارتنى وفاء .. يبدو
على وجهها القلق الشديد وكأنها تخفى عنى أمر ما ..

- ما بكِ يا وفاء ؟ ، هل تخفين شيئاً عنى ؟

- ردت بارتباك : لا .. إنه .. فقط .. ليس هناك شيئاً ما ..

- بل إن هناك شيئاً تخفيه عنى ، يجب أن تخبرينى ما هو ، ولا داعى للكذب فأنا أيضاً أشعر
بما تخفيه دون أن تتحدثى عنه .

- لقد هاتفتنى السيدة سوزان أمس وطلبت منى أن أخبرك بأن ترحلى عن حياة عادل .. وأنها سوف تمنع هذا الزواج مهما كلفها الأمر .. وسوف تسعى لحرمانك من نجاحك الذى كان سبب فى عشق عادل لك .

- إذاً هى السبب فيما حدث للسيد رياض .. إنها تعتقد بأن عادل أحب نجاحى .. أو أنه تعلق بأديبته المفضلة وليس بى انا .

- كيف ستتغلبين على تلك السيدة يا مريم ؟ ، يبدو أنها ترغب بتزويج ابنه بإمرأة أخرى تعتقد بأنها تناسبه أكثر منك .

- بل هى لا تشعر بعادل مطلقاً يا وفاء .. لا يتدرك ما تسبب فيه من ألم له .. وانا عشقته عشقاً لن تفهمه هى .. فقد جمعنا الألم قبل أن يجمعنا العشق .. ولن أتخلى عنه كما وعدته حتى لو تطلب الأمر خسارة كل ما حققته من نجاح .

لم يكن وعدى لعادل مجرد حديث عابر ، فأنا أستمد من عشقى له قوة .. قوة تسلحت بها لمواجهة السيدة سوزان .. حينما أخبرتني بأنها تنتظرني لنتحدث فى أمر زواجى بعادل .. أدركت بأنها تخطط لشيء ما أجهله .. ولكنى قابلتها تلك المرة بكامل قوتى وشموخى ..

- إبتسمت لى بثقة وخبث قائلة : إذا كنتِ تعتقدين بأننى سوف أتعاطف معك إن توصلتى إليّ لأغير قرارى بشأن زواجك من عادل ، فتأكدى بأنك مخطئة .. إنه فقط مجرد وقت وسيعود عادل الى هذا القصر مرة أخرى ويتزوج بإبنة عمه التى إخترتها انا له .

- إنك لا تعلمين إذا كان هو يرغب بالزواج منها أم لا ! .. لا تعلمين أين يسكن قلبه ومشاعره
التي تجاهلتها لسنوات .. حان الوقت لتجربين أمومتك أن تخضع لرغبة ابنك .. فهو لن يتخلى
عن عشقاً قد وضع فيه كل ثقته ..

صمتت لبرهة .. وبدأ يظهر على وجهها ألم حاولت إخفائه بإبتسامة مزيفة .. ثم غادرت المكان
دون أن تتفوه ببنت شفه .. لا أعلم إذا كان حديثي سوف يغير من الأمر شيئاً أم لا ! .. ولكن
يبدو أنها تألمت أكثر مما توقعت ، فأصبحت تتصرف بلا رحمة .. فقد أعلنت حرب شرسة على
انا فقط دون عادل .. توغلت في ماضى وفهمت نقاط ضعفى .. قررت فتح الصندوق الأسود
الذى أخفيته بداخلى .. والضغط على جراح إعتقدت أنى تركتها خلفى حين غادرت تلك القرية
وبدأت حياة جديدة.. سافرت السيدة سوزان الى تلك القرية التى غادرتها منذ سنوات لتعيد لى
ذكريات تعلم أنها قادرة على تحطيمى .. حاولت أن تقنع والدى بأنه يجب عليه أن يبحث عنى
ويعيدنى الى القرية مرة أخرى ..

لم أكن أدرك بأن ذلك الصندوق الذى يحتوى على جراح الماضى بأكملها يستطيع أن يحطمنى
بسهولة .. حين أتذكر مجرد ذكرى من الماضى فتتحول حياتى لكنتلة من الألم .. لم أدرك بأن
حياتى تحولت لساحة من المعارك ، وأننى يجب أن أظل أحارب فيها حتى الرمق الأخير .

لقد نجحت السيدة سوزان فيما خططت له .. لقد فعلت ما لم يستطيع أحد فعله مع والدى منذ سنوات .. إستطاعت ان تعيده الى المدينة التي رحل عنها منذ زمن .. إستطاعت بصندوق من الأموال أن يحطمني بما يحتويه صندوق الألم الموجود بداخلى .. فقد حضر والدى للمدينة معتقداً بأنه يستطيع أن يُعيد صغيرته الى القرية مرة أخرى .. تناسى أن طفلة لم تعد تلك الطفلة التي يُعنفها فتجلس متجمدة بإحدى أركان غرفتها وتبكي بصمت .. وانها تركت القرية هاربة من كل الألم ، ولن تعود لها مرة أخرى .. ولن أخاف تلك المرة من بطشه ، ولا من كلماته التي تخترق قلبى وعقلى .. قررت أن أخوض تلك المعركة بالألم الذى عانيته ، وان أُخرج كل جراحي المختبأة بداخل الصندوق الأسود الموجود بداخلى .. فمعركتى مع والدى لن تنجح سوى بإخراج كل هذا الألم من داخلى .. جلست أمام والدى .. تلك المرة لم أبكى ولم أرتجف كعادتى أمامه .. لم أختار الصمت كحديث مقتول .. إمتلأت رأسى فجأة بحديث كتمته مراراً أمام والدى .. ولكنه بات من الماضى فقررت إخراجهِ من داخلى وأن أطوى كل صفحات الماضى ..

- أتسائل يا والدى .. كم عاماً مضى وانا أتتنفس ذلك الألم ؟ .. كم مرة شعرت فيها أننى لست إبنة لهذا الرجل وليس إبنة العار الذى جلبته أمى له ؟ .. كم ضربة تلقيتها وانا أتألم بصمت ؟ .. كم حلماً حُرمت منه وقلبى معلقاً بتحقيقه ؟ .. كم يوماً غفوت وانا أتتنفس هواء ممتلئ بالغضب الذى أخدم نيرانه الخوف ؟ .. سُلبت منى طفولتى .. و تطايرت أحلامى بالسماء .. ما الذنب الذى إقترفته لأعاقب على زواج ابن القرية من إبنة المدينة

لماذا أدفع انا ثمن زواج لم ترضى عنه العائلة ؟ .. هل سأعيش طوال عمري أتألم بلا ذنب ؟ .. متى ستزول أثار التعنيف الموجودة على جسدى والتي رسمتها أنت وزوجاً أجبرتتى على الزواج منه ؟ .. متى ستكون مشاعر الأبوة بداخلك أقوى من كبرياتك كرجل ؟ .. ماذا لو كانت

دموع ودعوات طفلتك الصغيرة وصلت للسماء ؟ .. هل تستطيع أن تنتظر بعينى ولو مرة واحدة وتطلب منى شيئاً تريده بلا عنف ؟ .. إنك لن تستطيع فعل ذلك يا والدى لأن كبريائك وشعورك بأخطائك ورفضك لواقعك أقوى من أن تواجه نفسك به .. لن تعترف بأنك أب قد تسبب فى ضياع إبنته بين طيات هذا العالم الكبير .. لن تعترف بأنك ستحاسب يوماً ما على ما أعانى منه حتى الآن يا والدى .. لن تجرؤ أن تنتظر بعيناي لأنك سوف ترى فيهما الألم الذى يسكن بهما لسنوات بسببك ..

فلتكن مشيئة الله تلك المرة هى المسيرة على كلانا .. صمتت .. إقترب والدى ليعانقنى ودموعه تنهمر .. ربما ذلك الألم الى أراه بعينه يلىق به " .. إنها المرة الأولى التى أرى فيها دموع والدى .. إبتعدت عنه خوفاً .. فالخوف عادة من عاداتى ..

- لا تقترب يا والدى .. فاليوم عليك أن تشعر بنفس الألم الذى شعرت به لسنوات ولم يستطيع احداً محوه من داخلى .. يجب أن تشعر به وانت تحاول عناقى وانا أبتعد عنك خوفاً أن تلمس جسدى الذى مازالت أثار يديك موشومة بكل جزء فيه .. إن كنت تستطيع فرض مشيئتك ، وإجبارى على العودة لتلك القرية التى خلقت منك رجلاً بلا رحمة ، فلتكن مشيئتك يا والدى ..

لقد إنتهت معركتى الطويلة مع والدى .. ربما لم يزول كل الألم الذى تألمته لسنوات .. ولكنى أردت فقط إنتزاعه من داخلى حتى تُشفى جراحي وتبذل الى أمل ..

آمنت ان الحب ينتصر فى كل المعارك إذا تمسك الحبيبان بقوة ذلك الحب .. وان للحب ملائكة
تساعدهما حتى يكملان طريقهما مهما كانت العقبات بينهما .. ولكن القدر وحده يستطيع أن
يغير كل شئ .. عدت أنا لكتاباتي بشغف أكبر مما سبق .. فالحب أصبح هو القائد لقلبي وعقلي
.. وعاد عادل لعمله كطبيب مرة أخرى .. حينما عاد الى عمله لم يكن يدرك بأن القدر يخفى له
ولى طريقاً آخر ..

فلم أكن أتوقع أن ين عشية وضحاها سوف يتغير العالم بسبب جائحة لم يعرف أحد كيف بدأت
ومن أين مصدرها ! .. إجتاح العالم فيروس غريب ظهر فجأة ولم يجد له العلماء علاج .. تغير
كل شئ من حولنا وكأن العالم قد هُدم وبُنى مرة أخرى .. فقد إعتزل الجميع فى منازلهم خوفاً من
عدوى قد تصيبهم .. وأصبحت الشوارع خالية تماماً من البشر .. كان ظهور هذا الفيروس متزامناً
مع بداية عمل عادل بإحدى المستشفيات ..

برغم سعادته التى كانت تملأ صوته حين يحدثنى عن عمله والمجهود الذى يبذله فيه .. الا اننى
أشعر بالخوف فى كل مرة يحدثنى فيها عبر الهاتف ، كان يلزمنى هاجس بأن شيئاً ما
سيفرقنى عنه .. أحاول طمس هذا الشعور حتى لا يصبح جزءاً منى كالهروب .. ولكن لما لا
أخاف فالعالم كله فى ترقب .. نسمع كل يوم خبر وفاة أخ أو صديق أو جار فى كل عائلة ..
الموت أصبح جنونى وعشوائى لا ينذر أحد ..

لم أعتاد على الفراق بقدر ما إعتدت على الهروب .. لم يكن الفراق عالقاً فى رأسى حين غادرت
القرية .. أو رحلت والدتى عنى بعد ولادتى .. ولكن الفراق أصبح هاجساً يؤرقنى .. يؤلمنى
لمجرد سماع تلك الكلمة .. لم أكن أعلم بأن فراق من نحب أشد ألماً من هروبه .. فهاجس

الخوف من أن يرغمنا القدر أن نودع شخصاً نحبه للأبد بات يؤلمنى كثيراً .. لا أحب الوداع ..
لا أحب الفراق ..

حين طلبت من عادل أن يترك عمله خوفاً عليه من تلك الجائحة .. أجابنى بأنه جندى فى ميدان
المعركة ولن يترك الميدان .. أما أن أموت كباقي الجنود أو أعود منتصراً ..

رددت حينها بألم .. أتعلم بأننى لم تروق لى مقولة نجيب محفوظ عن الموت " الحياة فيض من
الذكريات تصب فى بحر النسيان ، أما الموت فهو الحقيقة الراسخة " .. فبعض الذكريات لا
تُسى .. بل تظل عالقة بوجداننا حتى الممات .. والموت شعوره مؤلم على من ودّع حبيبته ..
فمن منا يتقبل بتلك السهولة فراق من يحب ! .. من منا لم يتألم وقت الفراق ! .. فأنا لن أسمح
للقدر بأن يؤلمنى تلك المرة .. سأتمسك بك حتى رمقى الأخير يا عادل ..

لقد مرت شهور ومازال الحال كما هو فى العالم .. بل أصبح الوضع أكثر خطورة .. ولا تواصل
بينى وبين عادل سوى الهاتف .. إشتقت له كثيراً ، إشتقت لحديثه وإبتسامته ، إشتقت لنظرته
حين يخبرنى بأنتى كل ما يملك بهذا العالم ..

فى الثالثة صباحاً ، إستيقظت على صوت هاتفى .. كان المتصل عادل يحدثنى عبر الفيديو
كول .. أحببت بقلق ..

- ماذا حدث يا عادل ، هل أنت بخير ؟

- أنا بخير حبيبتى .. لقد إشتقتك كثيراً يا مريم .

زاد قلقي : ماذا بك يا عادل ؟ .. أنت تعلم بأنى أشعر بك دون أن تبوح بما داخلك .

- حين أشاهد المرضى لا يستطيعون التنفس .. أتألم يا مريم .. أتألم كثيراً .

شعرت بالخوف قد ملأ عينيه .. وماذا بعد يا عادل ؟ .. هل قررت الإستسلام ؟ .

- سوف تكتبين روايتك الجديدة عنا كما وعدتيني يا مريم ، اليس كذلك ؟

إرتجف جسدى وزادت دقاته فجأة ، وتلعثمت الحروف بفى .. لماذا تذكرت هذا الآن ؟

- ربما سأكتبها معك ، وربما ستضطرين لكتابتها بمفردك .. لا أعلم .. ولكن هناك شعوراً غريباً

تسلل الى قلبى فجأة ، ولكن إذا كتبتها بمفردك .. فماذا ستكتبين عنى ؟

- وماذا تعتقد أن أكتب عنك ؟ .. هل أكتب ان الرجل الذى أحببته حباً عميقاً إستسلم ليأسه

وقرر ان يرحل ، قرر أن يعيدنى مرة أخرى لعزلتى بعيداً عن العالم !.

- بل ستكتبين ان هناك رجلاً فى هذا العالم أحبك بشدة .. وانه أراد أن يبحث عن طريق يجمعه

بك دون خوف .. وستكتبين أيضاً بأنه كان يحلم دائماً بالوصول الى قلبك .. فهل إستطاع ذلك

؟

بل إنا من أحببته للدرجة التى جعلته بداخلى جزءاً منى حتى أصبحنا كياناً واحداً .. انا أعلم أنه

لن يتركنى فى هذا العالم بلا روح .

قال بأن المحبان إذا تلاقى ارواحهما فيصبحان كيان واحد .. بل يصبحان متشابهان ..

متشابهان فى كل شئ .. فقد أدركت بأننى وعادل أصبحنا متشابهان .. وكأن ارواحنا قد إتحدت

فى إحدى الحيات السابقة .. أعلم بأن الموت لن يفرقنا قبل أن يتحد جسدينا أيضاً .. وسوف

أنتصر أنا أيضاً فى ساحة معركتى مع الألم .. سأتمسك بالأمل حتى ننجو سوياً ..

حضرت السيدة سوزان لدار النشر ويعلو وجهها الشحوب .. فاجأتني زيارتها .. فلم يدور بيننا أى حديث بعد إتفاقي أنا وعادل على الزواج .. لم تبدى حينها أى رد فعل وكأنها رضخت للأمر الواقع .. جلست بجوارى وطلبت أن يكون حديثنا خاصاً بعيداً عن كل من بالدار .. لم يكن حديثها مقتضباً أو قاسى بل كان هادئاً ممزجاً بنبرة إنكسار .. لم تقلقنى زيارتها بقدر ما أقلقنى هدوئها .. تحدثت بتردد وكأنها تتحدث بما داخلها بصعوبة .. وبحروف متلعثمة بدأت حديثها ..

- لقد إمتلأ قلبي من الخوف من فراق عادل على كرهى لك .. ربما لم أكن أم حنونة .. حاولت أن أجمع أموال حتى أضمن لعادل حياة رعدة .. إعتقدت بأن ما سأتركه له من ثروة سيفيده أكثر من عناقى له حين يتألم .. لم أكن أدرك بأن ما يحتاجه منى هو الحب .. أنا أم تربيت فى بيت مفنقر للمشاعر .. كان والداى يجمعان الأموال خوفاً علينا من تقلبات الحياة .. كانت هذه طريقتهم للتعبير عن حبهم لنا .. وإتبعنا انا خطاهم وإتخذت تلك الطريقة فى التعبير عن حبى لعادل .. ولكنه إختارك أنتى .. إختار العشق وتمسك به .. تمسك بكِ لأنك عشقتيه بطريقة لم يعيشها به احداً مثلك .. أعلم أنك تعمدتى الهروب خوفاً عليه .. فحتى هروبك كان نابعاً من عشقك له .. لقد إنتصر عشقكما برغم كل ما واجهتوه سوياً .

حاولت السيدة سوزان تخفيف العبء الثقيل عليها .. وتقبلتني كجزء من عائلتها .. لم ترغب فى إهدائى هدية زواج ثمينة .. لكنها أعادت لى عادل .. فتلك المرة لم تستثمر ثروتها فى خلق حواجز فى طريقنا .. بل إستغلت نفوذها فى تحررى من براثن الخوف .. أغرقتنى فى بحار

الطمأنينة والأمل .. وأصبحت طوق إنقاذ للكثير من مرضى الجائحة .. فقد أنشأت مستشفى عريقة لخدمة مرضى الجائحة .. وتم تعيين عادل مديراً .. فهو وريثها وإرثها الوحيد كما وصفته لى ..

لقد آمنت والدة عادل وآمنت معها بأن هناك أمل يستطيع أن يقتل المستحيل .. يمحيه من حياتنا .. فقط إذا تمسكنا به .. إعتنناه كما العبادات .. كانت أقدارى متقلبة ، وجميعها مؤلمة ربما لأننى لم أتمسك بالأمل ، بل كنت دائمة التذمر على ما أعانى منه .. ولكن العشق وحده قادر على محو اليأس كالموسيقى التى ينبض قلبنا معها وتمحو الكراهية من قلوبنا ..

فالعشق وحده من يصنع الأمل .. من يبقينا أحياء من يسعدنا به القدر " أحياناً " .. لقد كتبت جميع رواياتى وأنا اتوق لتجربة عشق تمحو من قلبى اليأس والكراهية للقدر .. فعشقت .. تومردت على اليأس .. اليوم أكتب روايتنا كما وعدت عادل .. أكتب له أننى عشقت رجلاً لم يمنحنى إرثاً مادياً .. بل لهيب من المشاعر مشتعللاً دائماً بداخلى .. يثور بى دائماً ليخرج من داخلى حروفاً ممتلئة بالشغف لكى أسردها على الورق .. يشاركنى عادل فى كتابتها أحياناً وقت فراغه .. ولكنه دوماً يشاركنى فى كتابتها بروحه التى تعانقنى ..

أكتب إليه اليوم نهاية روايتنا بأنه إنتصر فى تلك اللعبة ، فى تلك المقامرة .. إنتصر على .. وخسرت انا أمام قدرى ..

سأكتب روايتنا فى كل مرة كما لم يكتبها روائى من قبل .. فقد أدركت بِنِ القدر كفتاة متقلبة المزاج ، تصيبك بالحزن ليلة .. وتمنحك السعادة فى ليالٍ أخرى .. "وَأَن حَيَاتِنَا سَتَظَل رَهْن الأقدار ."

النهاية